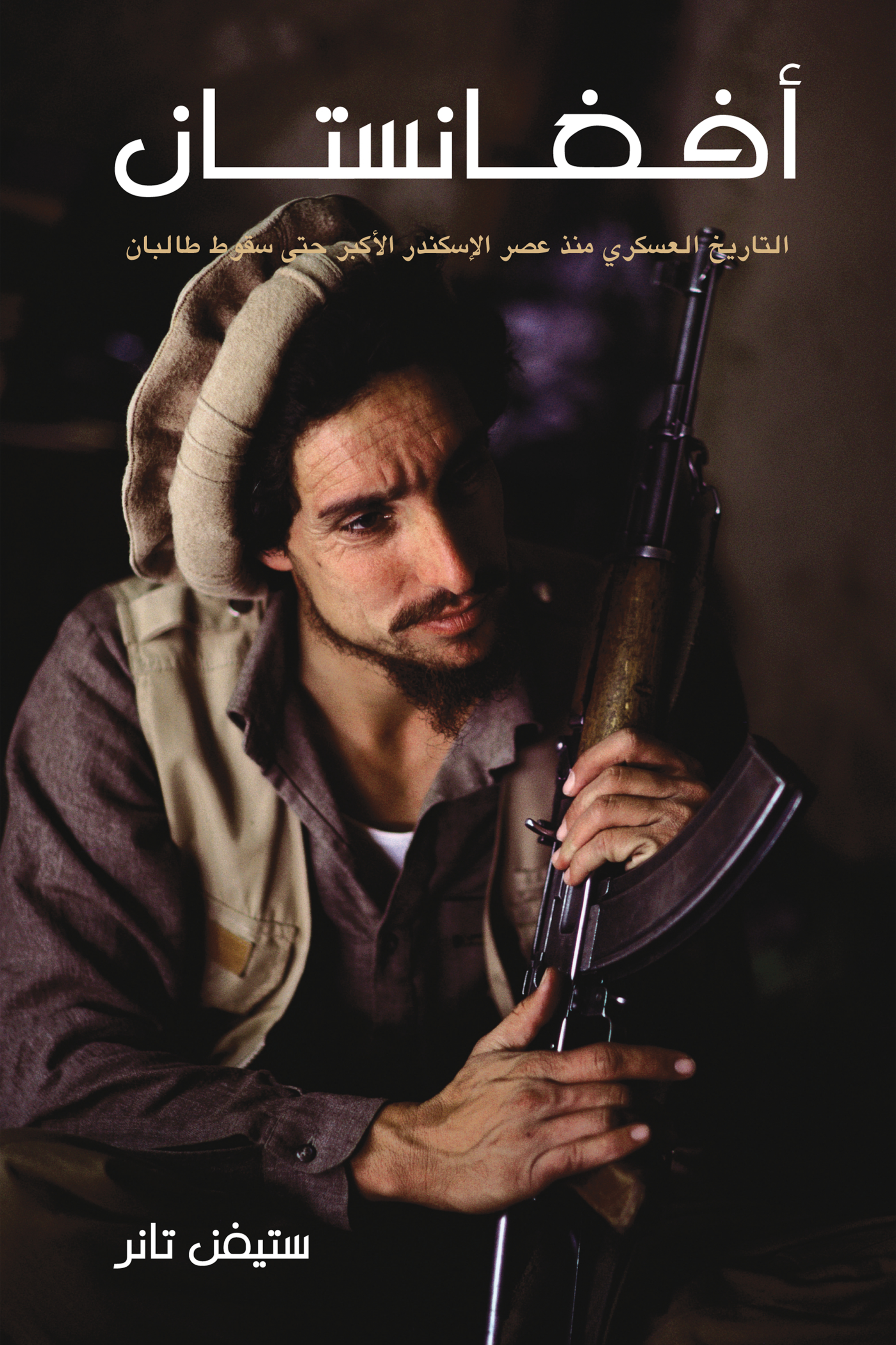

أفغانستان

التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان

ستيفن تانر

أفغانستان

أفغانستان

التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان

تأليف: ستيفن تانر

ترجمة
نادية إبراهيم

مراجعة
شهاب الدين أحمد

كلمات عربية

Afghanistan
A Military History from Alexander the Great to the Fall of the Taliban

Stephen Tanner

أفغانستان
التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان

ستيفن تانر

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م
ISBN 978 977 6263 41 3

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

تانر، ستيفن.
أفغانستان: التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان/ستيفن تانر؛ ترجمة: نادية أحمد إبراهيم؛ تحقيق: شهاب الدين أحمد . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٠.
٤٣٢ص، ١٥,٢×٢٢,٨سم
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٤١ ٣
١- أفغانستان-تاريخ قديم
أ- إبراهيم، نادية أحمد (مترجم)
ب- أحمد، شهاب الدين (محقق)
جـ- العنوان
٩٣٩,٦

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2010 Kalimat Arabia
© 2002 by Stephen Tanner
First published in the United States by Da Capo Press, a member of the Perseus Books Group.
All Rights Reserved.

المحتويات

مقدمة	٧
١- في مفترق الطرق بين الإمبراطوريات	١١
٢- الإسكندر الأكبر	٣١
٣- غنيمة النصر	٧١
٤- المغول	١٠٣
٥- بزوغ أفغانستان	١٣٥
٦- اللعبة الكبرى	١٥٩
٧- انتصار القبائل	١٩١
٨- انتقام الفكتوريين	٢٣١
٩- السوفييت	٢٧١
١٠- المجاهدون	٢٩٧
١١- ظهور طالبان	٣٣٣
١٢- الأمريكيون	٣٥٥
الختام	٣٩٧
مسرد الكلمات	٤٠٧
المراجع	٤١٣

مقدمة

في هذا العمل الذي يعبر خط الزمن، والذي اعتمد على مصادر منتقاة من جماعات لها لغتها الأجنبية التي ترجمت عبر القرون إلى أشكال مختلفة من اللغة الإنجليزية، حاولت جاهدًا أن أتحرى الثبات في تهجي وكتابة الكثير من الكلمات، وقد لقيت في هذا الأمر عنتًا شديدًا، إذ تحتم عليّ في بعض الأحيان أن أتبنى تهجيًا واحدًا لا أحيد عنه. فعلى سبيل المثال توجد خمس أو ست طرق لكتابة كلمة «محمد»، وثلاثة لكلمة «طالبان»، وثلاثة أو أربعة «لجلال أباد» ناهيك عن الجدل الدائر حول كلمات قندهار، وبيجرام، وأسامة، وباميان وغيرها كثير. وهناك قاعدة عامة انتهجتها في كتابتي لهذا الكتاب وهي استخدام التهجي الذي يرد في وسائل الإعلام، أما عن الأحداث التي يرويها معاصروها فقد تركت الألفاظ التي استخدموها دون تحريف، وكذلك فعلت عند الإشارة إلى أسماء الأشخاص الذين التقيت بهم.

لكنني استثنيت من ذلك مرحلة المغول التي تضمنت أسماء ترجمها علماء محدثون بشكل يخالف كثيرًا الشكل الذي ألفته منذ زمن، وهذا يرجع إلى الاتجاهات اللغوية الحديثة في تهجي الأسماء. وقد آثرت أن أختار التهجي القديم لهذه الفترة لأنه من المستحسن — في كتاب يحوي عددًا من الأسماء والأماكن التي قد تكون مجهولة لدى الكثيرين — أن أحتفظ قدر الإمكان بالأسماء القديمة المألوفة. وقد شمل البحث عن مصادر هذا الكتاب مؤلفات قديمة عن فترات تاريخية لا أجد في نفسي الجرأة أن أختار واحدًا منها أعطيه أهمية أكثر من غيره. أما فيما يتعلق بأحداث أواخر القرن العشرين فقد استعنت بأعمال بعض الكتاب المتميزين الذين قد لا تكون أسماؤهم مألوفة لدى القراء؛ ففيما يتعلق بالحرب السوفييتية كان كتاب مارك أربان War in

Afghanistan عملًا غاية في الدقة، صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٧م، وإن كان قد نمى إلى علمي أنه سوف تصدر منه قريبًا طبعة منقحة تشمل تسلسل الصراع حتى نهايته. أما كتاب لستر جراو الذي بذل فيه جهدًا خارقًا ليلمّ بأحداث الحرب من جميع جوانبها فهو يستحق الثناء، مثله مثل أعمال آن هايناما، وماجي ليبانين، وكذلك يوري يورشينكو الذين تمكنوا من جمع مقالات «قصة جنود» من مصادرها الأصلية. ولقد وجدت في كتاب Afghanistan The Bear Trap — لمؤلفه الجنرال محمد يوساف بالاشتراك مع مارك آدكن — رؤية مهمة لهذا الصراع من وجهة نظر باكستانية.

وأشير أيضًا إلى أهمية كتاب مايكل جريفين عن طالبان والإسلام المتطرف تحت عنوان Reaping the Whirlwind، وكتاب أحمد رشيد Taliban الذي يتسم بالدقة الشديدة. أما كتاب مارتن إيوانز الباحث في العلوم السياسية Afghanistan: A New History فهو يتناول تاريخ أفغانستان بداية من الجذور وفي نفس الوقت يشير إشارات ذكية إلى السياسة الأفغانية وصراعات القوى في القرن العشرين. أما المؤلفات العامة عن أفغانستان فقد كان كتاب لويس دوبريه Afghanistan هو نقطة الانطلاق الأساسية لي. وكذلك كتاب أولاف كارو Pathans، وهو كتاب ليس معروفًا لدى الكثيرين ولكن مؤلفه — وهو عالم مرموق وكان حاكمًا للإقليم الشمالي الغربي الحدودي — يستعرض تاريخ قبائل البشتون بحماس سرعان ما ينتقل إلى القارئ.

إنني مدين بالفضل لكثيرين ممن كانت مساعدتهم الشخصية لي عاملًا مهمًّا في إصدار هذا الكتاب مثل جانيس وميليسا كاكار — وهما طالبتان بجامعة إنديانا، أولاهما في قسم الصحافة والأخرى في قسم التاريخ — لما أمدتاني به من معاونة وخبرة، وكانتا قد قضتا الصيف الماضي في منغوليا حيث كانت ميليسا تجري دراسة حول الأنشطة المناهضة للشيوعية في سيبيريا في حين كانت جانيس تعمل مترجمة في وزارة الاستعلامات. وإنني مدين بالشكر أيضًا إلى ليام كلانسي، وهو شاب تخرج حديثًا من كلية هوفسترا للقانون، للمجهود الذي بذله في بحث وتحليل جزء من هذا الكتاب. خلال كتابتي لهذا المؤلف أسعدني الحظ بمقابلة عالم لامعٍ كريم هو ألكس جرانت، وربما لا يعرف الكثيرون أنه في منزل جرانت الممتلئ بالأطفال في مدينة نيويورك توجد مجموعة من الإصدارات الأولى لأعمالٍ تتناول الاستعمار البريطاني؛ هي الأضخم

من نوعها على هذا الجانب من المحيط الأطلنطي. والشكر موصول أيضًا إلى السيد دون تيل الذي أسهمت خبرته العلمية ومهارته في المراجعة والنشر؛ في توجيه هذا الكتاب، كما أتوجه بالشكر أيضًا إلى بوب بيجون وسام ساوثورت لمساعدتهم وثقتهم. وأخيرًا أقدم تقديري الكامل إلى آن سميث التي كانت حكمتها الواسعة في تناول الأحداث الجارية، بالإضافة إلى حماسها الشديد لهذا الكتاب؛ خير ملهم لي أثناء العمل.

أوزبكستان
قيرجيزستان
الصين
بخارى
سمرقند
أوزبكستان
تركمانستان
طاجيكستان
مدينة ماري
ترمذ
فايز أباد
جايريتان
بلخ
خولم
مشهد
شيبرغان
طالكان
قندوز
إيران
سامنجان
باغلان
ميمنة
بولي خمري
كوشكا
توراجوندي
شاريكار
طيبات
قرية نو
شاغشاران
باميان
جلال أباد
هرات
كوتي أشرو
كابول
باراكي
إسلام أباد
بيشاور
جارديز
روالبيندي
الهند
غزنة
خوست
شيندند
فرح
قالات
ليشكار جاه
(بوست)
قندهار
زاربول
زارانج
زوب
شامان
أفغانستان
حدود دولية
أنهار
طرق
كويتا
عواصم الدول
باكستان
(كيلومتر)
٢٠٠ ١٠٠ ٠
إيران
٢٠٠ ١٠٠ ٠
(ميل)

الفصل الأول

في مفترق الطرق بين الإمبراطوريات

في خريف عام ٢٠٠١م أغارت الطائرات الأمريكية بي-٥٢ (B-52) على البلاد الواقعة على جانبي جبال الهندوكوش فاكتملت الدائرة في التاريخ العسكري لأفغانستان، فالبلاد التي ظلت قرونًا طويلة في مفترق طرق الحضارات العظمى للعالم القديم بدأت تتعرض لهجوم قوة عظمى جديدة يافعة في العصر الحديث. وفي هذه المرة لم يكن موقع أفغانستان المتوسط في العالم هو الذي فجر غضب الجيوش الأجنبية المعتدية، بل انعزالها عن بقية دول العالم. وفيما كانت أفغانستان قديمًا مطمعًا للإمبراطوريات المختلفة، ومصدرًا لمحاربي الممالك من السكان الأصليين، تحولت في العصر الحديث إلى مجرد دويلة تقع على الحدود ثم ساحة لحرب باردة، وأخيرًا إلى مخبأ يعج بالكهوف التي أصبحت مأوى للإرهابيين الدوليين. لكنه مع إطلالة القرن الحادي والعشرين — وكما حدث في القرن الخامس قبل الميلاد — وجدت أفغانستان نفسها مرة ثانية في غمار حرب طاحنة مع أكبر قوة عسكرية في العالم، ونظرة واحدة إلى تاريخ أفغانستان الطويل الذي كان يعج دائمًا بالصراعات؛ تشير إلى أن هذا التطور الأخير لا يشكل أي مفاجأة.

فبخلاف البلاد الجبلية الأخرى مثل بيرو، ونيبال والنرويج، وحتى سويسرا، التي تعتبر أقرب مثال لها في البلاد الأوروبية، لم يكن مقدرًا لأفغانستان أن تعيش في هدوء وسلام بعيدًا عن بقية العالم، فمنذ فجر التاريخ المدون كانت أفغانستان محور طموحات إمبريالية عديدة بدءًا من الإمبراطورية الفارسية العظمى التي كانت أول إمبراطورية في العالم تمد سطوتها عبر القارات؛ إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي تمثل أعظم قوة في العصر الحديث.

وما بين هاتين القوتين واستسلامها للغزاة أحيانًا، ومقاومتها لهم أحيانًا أخرى، كان المحاربون الأفغان يشحذون قوتهم القتالية عن طريق صراعاتهم الداخلية في أراض تسهل لهم بطبيعتها تقاسم القوى ومقاومة مفهوم السلطة المركزية. ومن المثير للدهشة أن الشعب الأفغاني الذي ظل عرضة لحروب لا تنقطع طوال ربع قرن لا يزال يشكل عقبة أمام المعتدين الأجانب تمامًا كما كان منذ ٢٥٠٠ سنة ماضية، ولا تزال الخلافات الثقافية والدينية هي المحرك الرئيسي لعجلة الحرب، وبذلك سوف تظل أفغانستان — كما كانت سابقًا — مسرحًا ليس لصدام الجيوش فقط بل لصدام الحضارات أيضًا.

وتفسر الخريطة الجغرافية لأفغانستان — أكثر من خريطتها السياسية — الأهمية التي حازتها هذه الدولة عبر التاريخ. فهي تقع في أقصى شرقي هضبة إيران العظمى، ولقربها من جبال الهيمالايا التي بمنزلة قوس يحيط بها ولا يمكن اختراقه فقد أصبحت همزة الوصل الرئيسية التي تربط بين الإمبراطوريات العظمى في وسط آسيا والشرق الأوسط وشبه القارة الهندية. وربما يكون تعبير همزة الوصل مخففًا بعض الشيء؛ ففي واقع الأمر يعتبر هذا الطريق منفذًا للغزاة. فقد شهدت ممرات أفغانستان الضيقة عبور جيوش الفرس واليونان والموريان والهون والمغول، بالإضافة إلى جيوش أخرى من بريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، بقيادة العديد من أشهر القادة العسكريين في التاريخ. ولأنها أرض لها استراتيجيتها الحيوية الخاصة، فقد أفرزت بداخلها أيضًا إمبراطوريات أخرى، مثل الإمبراطورية الغزنوية والإمبراطورية الغورية والإمبراطورية الدورانية، وهي الإمبراطوريات التي أسهمت في ذيوع صيت قوة أفغانستان القتالية وبث الرعب في قلوب أعدائها من دلهي إلى بحر قزوين.

وقد أشار المؤرخ الكبير أرنولد توينبي Arnold Toynbee إلى أن بزوغ الحضارة من مهدها في بلاد الرافدين يوضح بجلاء خريطة العالم القديم ويميز بين البلاد التي تقع في الأماكن القصية المجهولة وتلك التي تقع في مناطق استراتيجية مهمة، فيضع سوريا وأفغانستان في هذا التصنيف الأخير باعتبارهما تقعان في منطقتين متميزتين، حيث كانت سوريا همزة الوصل بين الحضارات التي نشأت في أوروبا وأفريقيا وآسيا، في حين كانت أفغانستان هي النقطة التي تتفرع عندها الطرق الواصلة بين حضارات الهند وشرق

آسيا ووسط آسيا والشرق الأوسط ومن ثم إلى أوروبا، وقد كتب يقول: «ضع نفسك — ليس في أوروبا — ولكن في العراق، وسوف يتبين لك بوضوح أن نصف طرق العالم القديم تؤدي إلى حلب والنصف الآخر إلى باجرام.» ويشير توينبي إلى أن باجرام كانت في يوم ما مرشحة لأن يؤسس فيها قورش العظيم Cyrus the Great دولته العسكرية كابيش كانيش، وكانت مرشحة كذلك لأن تؤسس فيها مدينة الإسكندرية التي أنشأها الإسكندر الأكبر Alexander the Great في القوقاز بعد ذلك. أعتقد أن توينبي كان سيسعد لتأكد صدق نظريته لو عاش ليرى تحول مطار باجرام إلى قاعدة رئيسية للسوفييت في ثمانينيات القرن العشرين، أو ليرى جيوش بريطانيا وألمانيا وأستراليا — وليس فقط أمريكا — في مطلع ذات القرن، تهبط في هذه النقطة الحيوية التي تستكين بين السفوح الجنوبية لجبال الهندوكوش.

وعندما كان مركز الثقل السياسي في العالم يقع في الشرق بعيدًا عن العواصم الأوروبية وبعيدًا عن واشنطن، كان لأفغانستان دور محوري في التأثير على مصير بقية الأمم. لكن دورها الذي تمتعت به كموقع حيوي مهم في مفترق الحضارات بدأ يضمحل وتتهاوى معه أهميتها السياسية في العصور الوسطى، وتذكر المؤرخة ريا تالي ستيوارت Rhea Talley Stewart أن ما حاق بأفغانستان من خراب — لا سبيل إلى إصلاحه — إنما يعزى إلى رجلين أولهما جنكيز خان Genghis Khan، لأسباب سوف نذكرها فيما بعد، وثانيهما كريستوفر كولومبس Cristopher Columbus الذي يقال إنه أبحر إلى ما يعتقد أنه نهاية العالم، محددًا طرقًا تجارية وعسكرية عديدة بحرية لا برية. وتقول ستيوارت: «إن أفغانستان كانت أكثر أهمية عندما كان الناس يعتقدون أن العالم مسطح لا كروي.» فبمجرد ظهور القوة البحرية العالمية كنِدّ للقوة البرية (لم تكن قوة الطيران قد ظهرت في ذلك الوقت) تحولت النظرة إلى أفغانستان من معبر حيوي يربط بين الحضارات إلى مكان يفضل أن يظل أرضًا لا يملكها أحد. لقد ظلت أفغانستان منطقة مهمة من وجهة نظر الإمبراطوريات العظمى ولكن هذه المرة بالسلب وليس بالإيجاب. ففي القرن التاسع عشر تنافست أعظم دولة بحرية مع أعظم دولة برية للسيطرة عليها في مباراة حرب باردة عرفت باسم «اللعبة الكبرى» فقد كان لهذه البلاد أهمية قصوى للقوتين المتصارعتين ولكنهما حرصتا على ألا تمتلك

تلك الدولة قوة ذاتية تتحكم بها في مصيرها منفردة، بل تبقى دويلة حدودية عازلة بين منطقتي نفوذ هاتين القوتين. وبالطبع في خلال القرنين الماضيين لم يَجْنِ المشاركان في هذه اللعبة الكبرى — وهما بريطانيا وروسيا أو (الاتحاد السوفييتي) — من جراء هذا القتال سوى الخسائر الجسيمة.

لا يكمن تفرد أفغانستان فقط في موقعها بين هذه الإمبراطوريات المتصارعة، فالأراضي المنبسطة في شمال بولندا ووسط العراق كانت أيضًا مسرحًا للجيوش المغيرة، بل تَميُّزها يكمن في أن تاريخها الذي امتلأ دائمًا بالعنف ارتبط أساسًا بطبيعة أرضها التي أثرت بدورها في طبيعة شعبها. وبصرف النظر عن الجاذبية الاستراتيجية التي تتمتع بها ممراتها الجبلية الضيقة، ووديان أنهارها، فإن معظم أراضيها وعرة شديدة القسوة. وهي تنقسم إلى قسمين: أحدهما سلسلة مرتفعات صخرية وعرة، والآخر صحراء قاحلة شديدة الاتساع. ومن ثَم تميز شعب هذه البلاد الوعرة بقدرته على الدفاع عن أرضه سواء على المستوى القومي أو الإقليمي أو المحلي؛ فهي أرض يسهل اجتياحها ولكن يصعب تمامًا السيطرة عليها.

وفي المناطق الجبلية النائية لا تزال توجد قبائل يحكمها النظام الإقطاعي لم تتعرض لأي غزو أو تقع تحت سيطرة أي حكومات وطنية، وقد تمر بمعابرها بعض الجيوش المغيرة، فتأسر في طريقها بعض الجماعات المقيمة، وإن كان هذا في أفغانستان يشكل استثناء لا قاعدة، في حين توجد قبائل أخرى في المرتفعات النائية والوديان العميقة حافظت على استقلالها لآلاف السنين. ولا يعني هذا أن جبال هذه البلاد تقطنها مجموعة من النساك أو المواطنين المسالمين، فكثيرًا ما كانت هذه القبائل تهبط من موطنها في الجبال لتشارك في صد عدوان على البلاد، أو في حروب أهلية أو غزوات للسلب والنهب. ومن الملاحظ أنه حين كان الأفغان يتكتلون حول قضية وطنهم — الذي كان دائمًا محل نهب أو تخريب — لم تستطع أي قوة غازية السيطرة عليهم، بل العكس هو الصحيح؛ فالدلائل تشير إلى أن الشعب الأفغاني لا يتحد إلا إذا وُوجه بتهديد قوة أجنبية، فإذا ترك لشأنه فإنه ينغمس في معارك داخلية أو يمارس حياته بحرية، ليس من خلال ما تنص عليه الماجنا كارتا أو وثيقة حقوق الإنسان أو المانيفستو الشيوعي، بل من خلال أصول وموروثات قديمة لا دخل لأية حكومات بها.

وأفغانستان الحديثة بيضاوية الشكل إلى حد ما، تميل إلى الانحدار، وتحدد أربع مدن استراتيجية مهمة شكلًا رباعي الأضلاع يحيط بسلسلة جبال الهندوكوش: ففي الغرب تقع هرات في واد خصيب على مقربة من الحدود الإيرانية الحالية، وفي الجنوب توجد قندهار التي يربطها بهرات طريق يسهل الوصول إليه من الهند من خلال ممرات جبلية، وفي الشرق تقع كابول التي يربطها بقندهار طريق يمكن المرور فيه (في غير فصل الشتاء) أما في منتصف الجزء الشمالي من البلاد، وعلى مقربة من هرات فتقع مزار شريف التي يسهل الوصول إليها من كابول عن طريق ممرات عبر جبال الهندوكوش، وإلى الغرب من مزار ترقد أطلال بلخ الغامضة (التي تعرف باسم باكترا عند اليونانيين، وزارياسبا عند الفرس). أما العرب فيطلقون عليها «أم المدن»، ولآلاف السنين كانت بلخ — وهي المدينة الأسطورية التي ولد بها زاردشت وشهدت زواج الإسكندر الأكبر، وهي واحدة من أكبر المدن التي شهدت فظائع جنكيز خان — واحدة من أعظم وأجمل المدن في الإقليم. أما الآن فهي ليست سوى قرية صغيرة مهملة بالقرب من مجموعة ضخمة من الأطلال التي تداعب أحلام علماء الآثار.

ومع أن أهم مدن أفغانستان قد تغيرت خلال القرون السابقة، فإن المنطقة المحيطة بكابول هي المفتاح الحقيقي لأفغانستان، فالعاصمة الحديثة كابول تستقر في وسط مربع استراتيجي يحيط بها. أما باجرام السابق ذكرها فهي تقع على بعد خمسة وأربعين ميلًا من الشمال في سفح وديان فلها أهميتها الاستراتيجية الخاصة أيضًا، ويوجد طريق مرتفع من العاصمة إلى الغرب يؤدي إلى باميان في وسط جبال الهندوكوش تتفرع منه ممرات إلى الشمال وإلى هرات. وعلى بعد نحو ثمانين ميلًا جنوب كابول في اتجاه قندهار تقع غزنة التي كانت في يوم ما مركزًا لإمبراطورية أفغانية كبيرة، أما في الشرق وعلى بعد ثمانين ميلًا فتوجد جلال أباد على رأس ممر خيبر وهو الطريق المضلل الشهير الذي يؤدي إلى بيشاور في باكستان ومنها إلى الهند. إن الاستحواذ على كابول لا يعني السيطرة على البلاد بأكملها ولكن لا يستطيع أحد أن يحكم أفغانستان دون أن يحكم سيطرته تمامًا على كابول.

ومن المهم أن نلاحظ أن الحدود الحالية لأفغانستان الحديثة لم توضع إلا منذ قرن مضى مما يعني أن أي إشارة لكلمة «أفغانستان» أو «أفغان» في الأزمنة السابقة تحتاج إلى شيء من المرونة في تقديرها، فكلمة «أفغان» نفسها

لم تظهر في أية كتابات فارسية قبل القرن الثالث الميلادي. ومما يربك البعض أن الكلمة تعني في الفارسية القديمة «ذو ضجيج» أو «الجامح» أو «العاصف» أو إذا أردنا تخفيف الكلمة تصبح «غير متزن». حين زار المؤرخ البريطاني الدبلوماسي ماونت ستيوارت إلفنستون Mountstuart Elphinstone البلاد عام ١٨٠٩م لاحظ أن المواطنين لا يطلقون على بلادهم اسم «أفغانستان» ولكنهم يعلمون أن الآخرين يطلقون عليهم هذا الاسم. ويصف إلفنستون الأفغان بأنهم مجموعة شعوب عرقية من البشتون تنقسم إلى جزأين، يعيش جزء منها في الشرق (باكستان حاليًّا) والجزء الآخر يقطن الغرب، وأشار إلفنستون إلى أن أجزاء أخرى من الكيان السياسي الحديث مثل الهازارات في وسط جبال الهندكوش، بالإضافة إلى أن كل الأراضي الأخرى الواقعة شمال هذه الجبال؛ تعتبر خاضعة أو تابعة «لمملكة كابول».

وفي نهاية القرن التاسع عشر خطَّط المراقبون الأوروبيون حدود البلاد بهدف خلق دولة نموذجية من وجهة نظرهم تقع على الحدود بين الهند البريطانية وبين المد أو التيار الجارف القادم من روسيا في وسط آسيا. ولذلك نجد أن الحدود الأفغانية تتبع نهر أوكسس (آموداريا (جيحون)) في الشمال وهاري رد في الجنوب في مواجهة إيران. وفي المساحة بينهما عمد الروس إلى القيام بمناورة عسكرية تستهدف الاستيلاء على واحة مهمة قبل موافقتهم على خط ثابت للحدود. أما في الجنوب فلم يكن هناك أي جدال حول الحدود الأفغانية مع بلوخستان التي تقع في باكستان الحديثة حيث إن المنطقة بأكملها ليست أكثر من صحراء قاحلة تعتبر مصيدة موت لأية جيوش تخترقها، ولا تناسب سوى الرجال الأشداء الذين اختاروا العيش فيها. وفي الشرق بذلت بعثة بريطانية برئاسة سير مورتيمر دوراند Mortimer Durand جهدًا كبيرًا في تحديد خط يمر في وسط جماعة البشتون العرقية بهدف التقليل من أهمية أفغانستان السياسية مع تحقيق أكبر فائدة جغرافية للمدافعين البريطانيين عن التاج البريطاني (الراج).

وقد أسفر هذا التخطيط عن أن الحدود الحالية لأفغانستان في الشرق — وأغلبها لا يوجد واقعيًّا على الأرض بل نظريًّا فقط على قمم الجبال — أصبحت أحسن سبل الدفاع عن جوهرة التاج البريطاني. ولم يتخيل دوراند أنه سنة ١٩٤٧م سوف يجلو البريطانيون عن الهند بل ولم

يتخيل أيضًا أنه ستكون هناك دولة تسمى باكستان. ومع ذلك فإن البريطانيين والروس رسموا خريطة أفغانستان كدولة واسعة تبلغ مساحتها ٢٥٠٠٠٠ ميل مربع (مثل حجم ولاية تكساس تقريبًا) تهيمن عليها جبال الهندوكوش في الوسط وتقطنها مجموعات عرقية مختلفة على جانبيها. أما إصبع الأرض الأفغانية الذي يمتد ليصل إلى الصين في الشمال الشرقي في أراض لا قيمة لها تمتد نحو خمسين ميلًا وتعتبر شوكة في ظهر البلاد؛ فقد فرضه البريطانيون على أفغانستان حتى لا تمتد الأراضي الروسية إلى حدود الهند.

وقد أسفرت مجهودات المراقبين الأوروبيين على وجه الخصوص عن حروب داخلية لا تهدأ بين الجماعات العرقية التي يتكون منها الشعب الأفغاني؛ فقد ظل الأوزبك والطاجيك والتركمان في شمال الهندوكوش وأيضًا الهازارا الذين يقطنون الجبال في مقاومة دائمة لحكم البشتون في الجنوب، وكذا العكس، ويمثل هؤلاء ما يزيد عن ٤٠٪ من شعب أفغانستان ولكنهم يستمدون قوة مماثلة عن طريق الدعم النفسي الذي يأتيهم عبر الحدود الهشة مع باكستان، وقد أظهرت الحرب الأمريكية الأخيرة كيف يمكن للتحالف الشمالي بين الأوزبك والطاجيك أن يقاوم حكومة يقيمها البشتون مع أن باكستان سلحت الكثير من جنودهم، ووفرت المأوى والحماية للفارين منهم حين لاحت بوادر انتصار الشمال الذي تسانده الولايات المتحدة. وقد تعرضت باكستان خلال هذا الصراع، وأيضًا خلال الغزو السوفييتي وما تبعه من حروب أهلية؛ لمأزق كبير حاد.

ومما لا شك فيه أنه لو كان لدى البريطانيين في القرن التاسع عشر تصور حول إقامة دولة من البشتون في القرن التاسع عشر؛ لكان من الممكن أن توجد الآن دولة متجانسة إلى حد بعيد لا يقلقها التنافس العرقي إن لم يكن القبلي، دولة آمنة بعيدة عن الصراعات الحديثة تشارك في الاقتصاد العالمي، ولكن إذا ما تخيلنا إعادة رسم الخرائط الاستعمارية في العالم لقلنا إن أفريقيا بأكملها — هي وكثير من دول العالم — بحاجة إلى إعادة ترتيب نفسها عرقيًّا حتى في ضوء تبني الحضارة الغربية مفهوم التنوع تحت راية الفردية. ولكن حتى كتابة هذه السطور لا يبدو أن هذه الدول بصدد اتخاذ مثل هذا القرار في وقت قريب. ففي التسعينيات انقسمت يوغوسلافيا القديمة انقسامًا عنيفًا بسبب العرقية، فقد رفض السلوفينيون أن يعانوا معاناة الكرواتيين تحت حكم يوغوسلافيا، وفي البوسنة والهرسك سفك المسيحيون والمسلمون دماء

بعضهم بعضًا لأن كلًّا منهما أراد أن يقيم دولته الخاصة، وهو ما يعد نذير شر لأفغانستان.

والتجربة البلقانية التي تلازمت مع سفك الدماء العرقية في وسط أفريقيا بالإضافة إلى استمرار الحرب الضروس في أفغانستان تنبئ بتحد كبير سوف يظهر في القرن الحادي والعشرين، يحتاج إلى أن تتعامل معه قوى أكثر ثباتًا واتزانًا، وهذا التحدي هو بالطبع السبب الرئيسي في إغارة الطائرات الأمريكية بي-٥٢ (B-52) على كابول.

ويبقى هنا سؤال: إذا كانت الحدود السياسية لأفغانستان الحديثة هي اختراع حديث فماذا كانت تعني كلمة «أفغانستان» في العصور الماضية؟ والأهم من هذا من هم «الأفغان» وماذا كانوا؟

لقرون عدة ساد الاعتقاد بأن الأفغان الأصليين كانوا إحدى قبائل بني إسرائيل المفقودة، لكن هذا الموروث فقد مصداقيته حين أقيمت دولة إسرائيل الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية. يذكر علماء اللغة والآثار أن هذه المنطقة قد اجتاحتها الشعوب الهندوآرية في الألفية الثالثة قبل الميلاد وبالتحديد الشعوب التي كانت تتحدث لغات المجموعة الإيرانية والتي هاجرت جنوبًا من وسط آسيا، ثم طردت الأقليات الدرافيدية التي تدفقت بعيدًا صوب الجنوب إلى شبه القارة الهندية. وحاليًّا لا تزال أقلية درافيدية يطلق عليها البراهوي تتناثر على الحدود بين جنوب أفغانستان وبلوخستان تثير حيرة علماء الأنثربولوجيا، ومن المحتمل أن تكون هذه الأقلية قد نجحت في الفرار متجنبة أمواج الغزو الأولى ثم عادت بعد ذلك إلى الصحراء مرة أخرى بعد أن تيقنت أنها أصبحت آمنة، أو من المحتمل أيضًا أن يكون الغزاة قد احتفظوا بسكانها في الإقليم كعبيد لهم. وقد انقسمت الشعوب الهندوآرية إلى مجموعات عديدة بعضها يعمل بالزراعة والبعض الآخر تحول إلى رعاة متنقلين، لكن هذه الجماعات الأولى التي ارتبطت بجماعات أخرى كانت تقطن الهضبة الإيرانية التي تمتد جنوبًا حتى نهر تيجريس؛ هي التي تكون منها الشعب الأفغاني، بالإضافة إلى بعض الأجناس الأخرى التي ولدتها أمواج الغزو المتكررة.

وحتى نهاية الحقبة الاستعمارية، ظل تاريخ أفغانستان متشابكًا مع تاريخ جيرانها: الفرس في الغرب، والهنود في الشرق، والمحاربون البدو في السهول الجرداء إلى الشمال. وكانت الحروب في العصور القديمة بين ملوك

الفرس واليونان حول أفغانستان صراعًا متلازمًا مع حروبهما ضد قبائل السيثيان في الشمال في سوجديا القديمة، وتمثل هذه الحروب أهمية خاصة؛ لأنه في القرن الذي سبق ظهور المسيح (أو ٧٥٠ عامًا قبل محمد) اضطر السيثيان إلى الرحيل من السهول الجرداء في مجموعات ضخمة ليستقر أغلبهم في جنوب جبال الهندوكوش، في قوس يمتد من سيستان في إيران عبر جنوب أفغانستان والسند الحديثة ومنها إلى وادي بيشاور، وهي نفس المنطقة التي يحتلها البشتون الآن، ويعتقد الباحثون أن الفترة التي أعقبت هذه الهجرة شهدت ظهور هذه الطائفة العرقية ولغتها الخاصة. وكما يصف المؤرخ الدبلوماسي أولاف كارو Olaf Caroe فإن لغة البشتون هي بالضبط ما يمكن أن نتوقعه نتيجة تأثر وامتزاج اللغة الإيرانية القديمة باللغة الفارسية والهندية عبر الزمان. أما البشتون الذين لا يمكن أن نغفل عن ثقافتهم الحربية العنيفة، فإن الصفة الغالبة على مؤثراتهم العرقية العديدة قد تكون ما أسماه القدماء السيثيانية (وهي تعني القتل بالمنجل). وحين مات قورش العظيم ملك الفرس في ظروف مريبة على ضفة نهر الياكسارتس فمن الممكن أن يكون قد وقع بين أيدي من نطلق على سلالتهم الآن الأفغان.

وإلى أن بدأ البريطانيون في رسم خرائطهم ورسوماتهم البيانية على الحدود الشرقية، كان الأفغان يشكلون قوة كبيرة في باكستان أو الهند كما كان يطلق عليها قبل عام ١٩٤٧م (ويقال إنه طبقًا للمؤشرات القديمة، فإن باكستان لها الأحقية الأولى في أن يطلق عليها «الهند» أكثر من جارتها خاصة مع وقوع نهر السند في أراضيها)، وحتى القرن التاسع عشر كانت بيشاور تضاهي في أهميتها — بوصفها مدينة أفغانية — أهمية كابول، بل كانت تعتبر العاصمة الشتوية لأفغانستان، وكذلك كانت كويتا التي تقع في أسفل ممر بولان تعتبر مدينة أفغانية، أو على الأقل باشتونية، بالإضافة إلى أراضٍ أخرى في السند والسوات وكذلك كشمير (عن طريق الغزو)، وأيضًا المقاطعة الواقعة على الحدود الشمالية الغربية بأكملها. ويختلط الأمر على الكتاب القدامى في التمييز بين الهند وأفغانستان خاصة عند الإشارة إلى «الهنود الجبليين» أو إلى شعب مثل البارابامبسيداي وهم الهنود الذين عاشوا في بارابامبسوس، وهي كلمة فارسية تعني الهندوكوش.

ومع توالي العصور بدأت الإجابة عن سؤال: «من هو الأفغاني؟» تتضح قليلًا في ضوء توقف حركة الهجرة والانتهاء من وضع الحدود السياسية، وإن كانت تفسيراتها تبدو معقدة بعض الشيء. فنحن الآن نعرّف الأفغاني بأنه الشخص الذي يأتي من أفغانستان، ويشمل هذا التعريف طائفة البشتون، والأتراك (الأوزبك، والطاجيك، والتركمان)، ومغول الهازارا، والنوريسستانيين ذوي الشعور الحمراء، والبراهمة ذوي البشرة الداكنة، وعددًا آخر من الجماعات. لكننا حين نصف الباكتريانيين أو الغزنويين مثلًا — وكلاهما لم يعد ضمن الكيان السياسي الأفغاني الحالي — أو اليونانيين والبارثيانيين الذين عاشوا بعيدًا وإن كانت لهم نفس المعتقدات؛ فنحن إنما نشير إلى عناصر من أجناس تشكل آخر الأمر أفغانستان، تلك الأرض القديمة التي استقرت أخيرًا على حدودها الثابتة.

يعتبر بزوغ الإمبراطورية الفارسية سنة ٥٥٠ قبل الميلاد بداية التاريخ المدون، ليس فقط لأن الفرس سجلوا تاريخهم (مع أنه ما كان إلا قوائم منحوتة في الصخر تستعرض في زهو مراسيم وأوامر) بل لأن الإغريق قد حذوا حذوهم بعد أن كانوا يراقبون إمبراطوريتهم عن كثب، ولذلك يمكننا القول إن الإغريق ومن بعدهم الرومان الذين استندوا إلى المصادر اليونانية الأساسية كان لهم الفضل فيما نعرفه اليوم عن أفغانستان في الزمن القديم. ولا يزال الأثريون المحدثون يدرسون بعض النتائج التي توصل إليها الإغريق والرومان، لكن التاريخ الذي تأسس على المعرفة اليونانية يعتبر أحسن نقطة بداية لدراسة التاريخ القديم لأفغانستان.

ويذكر المؤرخ الروماني آريان Arrian أن كلًّا من الآشوريين والميديس سبقوا الفرس إلى نهر السند، ولكن لا يدعم هذا القول أي دليل أثري أو مكتوب. وقد يكون الآشوريون قد وصلوا في مسيرتهم عام ٧٠٠ قبل الميلاد إلى المنطقة المحيطة بقندهار أو ربما تجاوزوها، لكن هذا لا يعني أنهم غزوها، وربما كان الميديس أيضًا قد كونوا علاقات مع سكان المناطق المحيطة بهرات وبلخ لكن ليس طمعًا فيها؛ فقد كان اهتمامهم منصبًّا على خصومتهم مع إمبراطورية ليديا والإمبراطورية البابلية في الغرب. وإن كان الأفغان قد استسلموا لغزو الآشوريين أو الميديس بالفعل فإن هذا لم يدم إلا لفترة قصيرة، ولذلك فإن هذه البلاد لم تعرف وتشتهر إلا بعد غزو الفرس لها.

ومن المعروف أن قورش العظيم مؤسس الإمبراطورية الفارسية كان يطمع في أفغانستان، ولذلك حاول غزوها مرتين مختلفتين، لكنه على الأرجح لم ينجح في عبور جبال الهندوكوش، ففي الغزوة الأولى تعثر الجيش في ماشتي داجو (صحراء الموت) ووصل إلى حالة مزرية أنقذتهم منها طائفة تدعى الأرياسبيان الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر هلمند وقد أسماهم قورش «المحسنون»، وبعدها تقدم قورش شمالًا إلى وادي نهر كابول مخترقًا قندهار. وفي سفح الهندوكوش بالقرب من باجرام أقام حامية في بلدة كابيش كانيش أو كابيسا، لكنه ليس من المعلوم هل عبر الجبال أم لا.

أما الدلائل التي تشير إلى استيلاء قورش على شمال أفغانستان أو باكتريا فتكاد تكون منعدمة، ولكن واحدة من أوائل غزواته — ومن المؤكد أنها كانت الأخيرة — كانت ضد قبائل السيثيان الذين يعيشون في المنطقة الواقعة بين نهري الأوكسس والياكسارتس، وهناك أسس حدود إمبراطوريته بعد تعزيزها بسلسلة من سبع مدن حصينة كانت أكبرها سيروبوليس. ومن المستبعد تمامًا أنه كان سيبذل جهدًا كبيرًا في الإغارة على ما كان يعرف بالجمهوريات السوفييتية في تركمانستان، وأوزباكستان، وطاجيكستان دون أن يؤمن الأراضي الواقعة بين نهر أوكسس وجبال الهندوكوش بالإضافة إلى الأراضي الخصبة والحضارات المزدهرة حول بلخ وهرات الحديثة.

وبعد غزواته وانتصاراته في جميع الأراضي الممتدة من أفغانستان وحتى فلسطين قُتل قورش أثناء معركة شرسة مع قبيلة من قبائل البدو تدعى ماسيجاتاي بالقرب من نهر الياكسارتس. ويشير بحث حديث عن هذه المعركة إلى أن ملكة ماسيجاتاي — توميريس — قالت إن قورش كان «لا يشبع من الدماء» وبناء عليه أغرقت رأسه في آنية مملوءة بالدم (وقد يبدو هذا التصرف لا معنى له، لكنه كان مصدر إلهام للعديد من الفنانين في العصور الوسطى). وبعد وفاة قورش لم يحاول ابنه قمبيز أن يقترب من الشرق، بل حصر كل جهوده الناجحة خلال سنوات ملكه القصيرة في غزو مصر مع بعض محاولات الاتجاه إلى الحبشة. ولذلك فإن أدق ما وصل إلينا من معلومات عن انتصارات قورش كان من خلال داريوس الأول Darius I، ثالث ملوك الأكامينيد الذي سجل قائمة بالأراضي التي ورثها على وجه صخرة في بيهيستون، وتشمل هذه الأراضي باكتريا (بلخ) في الشمال، وآريا (هرات) في

الغرب، وأراكوزيا (قندهار) في الجنوب، بالإضافة إلى جاندهارا التي تُكَوِّن مع باروسميداي امتداد الأرض بين كابول وبين وادي بيشاور دون أن تتخطاها إلى نهر السند.

وتعتبر قائمة بيهيستون (٥٢٠ سنة قبل الميلاد) أقدم وصف مكتوب لأفغانستان، وكان من الممكن أن تكون المعلومات الواردة بها ضئيلة إلى حد افتقادها لأي معنى، لولا أن المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodotus — الذي اتسعت رحلاته وكانت له مصادره الخاصة — أضاف إليها الكثير من التفصيلات؛ فعن طريق هيرودوت الذي لقب «بأبي التاريخ» نتعرف على طائفة الباكتويكي، وهم الهنود الذين كانوا يقطنون أقصى الشمال، وعُرِفَ عنهم أنهم من أشد المحاربين صلابة، وكانوا يلبسون ويتسلحون مثل الباكتريانيين، وعن طريق هيرودوت أيضًا نعرف أن داريوس أرسل بعثة بحرية لتستكشف الهند حتى آخر حدودها الطبيعية، وقد اتجهت هذه البعثة أولًا تحت قيادة أيوني إغريقي يدعى سكايلاكس Skylax شرقًا عبر نهر كابول، ومن المرجح أنها بدأت بالقرب من بيشاور، جنوبًا في اتجاه بحر العرب، أو ما يعرف الآن بكراتشي، وفور استلام داريوس تقرير البعثة أغار على المنطقة — السند حديثًا — ووصل حتى نهر السند. وفي نقوشه اللاحقة لغزواته، نجد أنه يشير إلى الإقليم الجديد تحت مسمى «الهندوش»، وتعتبر هذه هي المرة الأولى التي يُمَيَّز فيها بين الشعبين اللذين نعرفهما الآن باسمي الهنود والأفغان، وقد فرض داريوس على سكان هذه المنطقة «التي تضم أكبر عدد ممكن من سكان العالم» دفع جزية تقدر بـ ٣٦٠ طالين من الذهب، في حين فرض على الإقليم المحيط بجاندهارا بما فيها باكتوان ضريبة تقدر بـ ١٧٠ طالين فضة أو ما يعادلها.

ومع أن الفرس أسسوا أعظم إمبراطورية في العالم القديم فإن الإغريق — الذين كانوا يتميزون بديناميكية ثقافتهم إلى جانب انغماسهم في المعارك السياسية — تفوقوا عسكريًّا في القرن الخامس قبل الميلاد حتى تخطت مستعمرات بعض حكامهم الأراضي الفارسية. وعندما كان الفرس يرسخون إمبراطوريتهم في بلاد الرافدين الوديعة، كان تطور فنون الحرب عند الإغريق في أوجه، وكانوا يختبرونه في معاركهم مع الولايات الأخرى باستخدام الحراب ومواجهة الخصم وجهًا لوجه وهو أسلوب لم يكن مألوفًا

لدى الفرس. وفي المناطق الواسعة في آسيا كان القوس هو أهم الأسلحة بالإضافة إلى الرمح ثم سلاح الفرسان. أما في المناطق الجبلية المكتظة بالسكان فقد كانت الأسلحة بعيدة المدى والمناورات التكتيكية التي تتسم بالمرونة غير عملية إلى جانب عدم توافر الخيل بها. فظهر أسلوب المواجهة المباشرة أو «الصدمة» يمارسه مواطنون مدججون بالسلاح أطلق عليهم «الهوبلايت» (حاملو الدروع)، ولتحقيق مزيد من التطوير في هذه النوعية الشرسة من القتال قام اليونانيون بعملية تزاوج بين المعارك وجهًا لوجه وبين نظام صارم يعتمد على تشكيل خطي يسمى «الفالانكس» حيث يحتمي كل محارب بدرع من يجاوره. ومع أن الإغريق ظلوا يمجدون صورة البطل الأوحد في حرب طروادة التي كانوا يحتضنونها ويدرسونها منذ طفولتهم، فإنه في الواقع العملي تقهقرت فكرة الفردية أمام مفهوم النظام الجماعي، بحيث كان نجاح أو فشل هؤلاء المقاتلين يرجع إلى الكل وليس إلى فرد واحد. ولأنهم كانوا بحّارة مهرة، بفضل وقوع بلادهم في مركز التجارة في البحر المتوسط؛ فقد كانوا أكثر اتصالًا بالعالم من الفرس، وكانت دروعهم مصنوعة من البرونز لتعطيها نوعًا من المرونة، أما أسلحتهم الحديدية أو التي كانت أطرافها مصنوعة من الحديد فقد كانت أكثر تفوقًا من أسلحة العدو، بحيث كان من الصعب على حامل القوس من الفرس أن يصيب واحدًا من هؤلاء الهوبلايت اليونانيين الذين تغطي أجسادهم الدروع ويبرعون في استخدام دروعهم الدائرية الكبيرة، وكان اقتراب واحد من هؤلاء المقاتلين بحربته التي يبلغ طولها نحو ستة أقدام من أي جندي فارسي يعني الهلاك.

وفي عام ٤٩٠ قبل الميلاد أرسل داريوس قوة لإخضاع شبه الجزيرة اليونانية، لكنها تعرضت لهزيمة نكراء في معركة ماراثون، واضطر سلاح المشاة الفارسي إلى التقهقر والعودة إلى أسطوله، وكان اليونانيون قد هجموا في اللحظة التي كان فيها الجنود المشاة من الفرس في مهمة بحثية، لكن سلاح الفرسان الشرقي ظل مصدر تهديد حقيقي لليونانيين حيث كانت نقطة الضعف في الفالانكس تتمثل في جناحيه وظهره.

بعد عشر سنوات قام زيركسس الأول Xerxes I خليفة داريوس بعملية غزو كاملة لليونان على رأس أكبر جيش عرفه التاريخ في ذلك الوقت، وكانت إحدى نتائج هذا الغزو أن سنحت لهيرودوت الفرصة لمزيد من الدراسة لمكونات

الإمبراطورية الفارسية فيشير إلى أن الباكتريانيين كانوا يرتدون قبعات من الفل مثل الميديس والفرس كما كانوا يحملون أقواسًا من الخيزران وحرابًا قصيرة، أما السيثيانيون فكانوا يرتدون قبعات مدببة الأطراف وسراويل، كما كانوا يحملون معهم الخناجر والفئوس. وكانت القوتان تحت قيادة شقيق زيركسس وهو ابن لداريوس وزوجًا لواحدة من بنات قورش، ومما يثير الانتباه أن حاكم ولاية باكتريا كان أعلى رتبة في الأمراء في العائلة الأكامينيدية، وغالبًا كان هو ولي العهد.

وهذا وصف هيرودوت للإيرانيين الذين جاءوا من غرب أفغانستان الحالية: «كانوا يتمثلون في تسليحهم بالباكتريانيين، فيما عدا الأقواس التي يحملونها فقد كانت تمثل النموذج الميديسي.» وكانت شعوب جاندهارا العظيمة مثل البارثيانيين والكورازميين الذين كانوا يعيشون بجوار بحر قزوين يرتدون نفس الملابس التي كان يرتديها الباكتريانيون. أما الباكتوان فيقول عنهم إنهم كانوا يرتدون عباءات جلدية ويحملون معهم الأقواس والخناجر المعروفة في بلادهم. في حين كان الهنود يلبسون ملابس قطنية ويحملون أسهمًا وأقواسًا مصنوعة من الخيزران ذات رءوس حديدية. وقد شارك الباكتريانيون والسيثيانيون والباكتوانيون في الحرب بسلاح من الفرسان يحملون نفس الأسلحة التي يحملها زملاؤهم في سلاح المشاة.

أما أكبر فصيلة في سلاح الفرسان التي كان يبلغ عددها ثمانية آلاف مقاتل فقد كانت مؤلفة من الساجارتيانيين الذين يصفهم هيرودوت بأنهم شعب من البدو من أصل فارسي يتحدث الفارسية ولكنهم يرتدون ملابس هي مزيج من النمط الفارسي والباكتويكي، ويضيف إنهم لم يكونوا يحملون أية أسلحة من البرونز أو الحديد، بل يكتفون بالخناجر ويعتمدون على حبال جلدية ذات عقدة في أحد أطرافها. ومن الواضح أنهم كانوا يحاربون مثلما يفعل الآن لاعبو الروديو. ولم يأت ذكر الساجارتيانيين إلا في واحدة فقط من قوائم داريوس التي تضم الشعوب التي انتصر عليها، وبعد الغزو لم يأت ذكرهم في أية كتابات يونانية أخرى، وربما كانوا قد تمردوا على السلطة الفارسية أو ربما لكونهم بدوًا رحلًا كان من الصعب أن يستقروا بأرض واحدة فتفرقوا في مناطق أخرى. ويدلي كارو بنظرية أخرى وهي أن هذا الشعب — الذي نصفه من الفرس والنصف الآخر من الباكتوان — ربما انحدرت من نسله قبيلة

أبدالي التي سميت فيما بعد قبيلة دوران وظلت لقرون عدة القبيلة الرئيسية في غرب أفغانستان.

كانت بداية المعركة عنيفة من جانب جيش إسبرطة عند ممر ثيرموبيلاي قبل أن يلتحم الجيشان ومن ثم يُباد جيش زيركسس كله وعدده ثلاثمائة جندي. واستمر الفرس في الزحف نحو مدينة أثينا، لكن الأثينيين نجحوا في تدمير أسطولهم على شاطئ جزيرة سالاميس القريبة. ويعتبر انتصار اليونانيين في هذه الجزيرة حدثًا بارزًا في التاريخ حيث إنه أجبر زيركسس وأغلب جيشه على التقهقر. وبعد أن فقد الملك العظيم تفوقه البحري اضطر إلى العودة سريعًا إلى وطنه قبل أن يعبر الأسطول اليوناني بحر إيجة ليعترضه في هلزبونت ولكنه ترك قوة كبيرة بقيادة أقرب قادة جيشه إليه — ماردونيوس Mardonious — ليستأنف القتال، وكان جيش ماردونيوس يضم أبرز المحاربين في الولاية وكان اختياره الأول هو رجال الحرس الشخصي للملك، أو من يطلق عليهم العشرة آلاف الخالدون، بالإضافة إلى وحدة كاملة التسلح تضم ألفًا من الفرسان. وكما يقول هيرودوت «ثم قام بعد ذلك بتجميع فرق المشاة والفرسان الذين وفرهم الميديس، والسيثيان، والباكتريان والهنود. وكان يختار كل رجل منهم بطريقة عشوائية، ولكنه كان في كل مرة ينتقي قليلًا من فرسان حلفائه الآخرين، متوخيًا المكانة أو الكفاءة كأساس لاختياره.»

وفي الشهور التي تلت ذلك دُعِّمت قوات ماردونيوس من قبل اليونانيين المتحالفين معه ومنهم الهوبلايت الذين جاءوا من مدينة طيبة اليونانية. وفي ربيع عام ٤٧٩ قبل الميلاد، هاجم الجيش الفارسي أثينا للمرة الثانية ثم واتيكا وهي المنطقة التي تحيط بها. واجتاح فرسان الأعداء البلد مع أن مراسلنا الحربي الأول هيرودوت فشل في التمييز بين بطولات الباكتريانيين والسيثيانيين وربما فشل في التمييز بين الساجارتيانيين وبين قوات المشاة الفارسية بصفة عامة.

وحين التحم الجيشان المتحاربان بعد تسعة أشهر من المناوشات في معركة بلاتيا تساوت هذه المعركة مع معركة سالاميس من حيث دورها الهام في مستقبل الحضارة الإغريقية، وفي وصف مثير لهذا القتال الذي ظلت نتائجه غير محسومة حتى النهاية، يذكر هيرودوت أن الباكتريان والهنود والسيثيان واجهوا قوات من الولايات اليونانية الصغيرة في الوسط. أما قوات إسبرطة فقد واجهت مجموعة الفرس «الخالدين» على اليمين في حين كان الأثينيون يواجهون

جنود طيبة وقوات التحالف من «الهوبلايت» على اليسار. أيام طويلة استهلكت في المناورات قبل المعركة، إذ كان اليونانيون يتحصنون بالتلال كي يتجنبوا هجمات خيالة الفرس. وأخيرًا ظهرت فرق مشاة الفرس في الميدان المفتوح لتلتحم معهم بعد أن قامت بقطع السبيل إلى المياه عنهم، وكانت المعركة شرسة من الجانبين، وربما كانت خسارة الغزاة تفوق خسارة المدافعين، يقول هيرودوت:

> «كان الفرس والإغريق متعادلين في الشجاعة والقوة، لكن الفرس لم يكونوا يرتدون أي دروع، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يفتقدون الخبرة والمهارة التي تحلى بها خصومهم، كانوا يندفعون إلى الأمام الواحد تلو الآخر، وأحيانًا في مجموعات من عشرة محاربين يهاجمون جيش إسبرطة ليلقوا مصرعهم.»
>
> كان ماردونيوس يعتلي حصانه الأبيض وسط المعركة، وقد أحاطت به فرقته الخاصة المختارة من ألف جندي من الجنود الأشداء الأقوياء، وكان ظهوره يحفز الجند على مواصلة القتال بشجاعة مما كان يصعب الأمر على أعدائه، ولقي الكثير من الإسبرطيين مصرعهم.

لكن ماردونيوس قُتل أخيرًا على يد واحد من جنود إسبرطة فانهار الجيش بعدها، وانقطعت أخبار سلاح الفرسان من جيش الفرس بعد ذلك، وربما يكونون قد نجحوا في الفرار من ملاحقة فرق المشاة اليونانية لهم. يقول هيرودوت إن الخسائر في المعركة بلغت ٢٥٧ ألف قتيل من الجانب الفارسي، في مقابل ٩١ من الإسبرطيين منهم ١٦ من مدينة تيجا بالإضافة إلى ٥٢ من أثينا. وتعتبر هذه واحدة من قصص المعارك التي يرويها اليونانيون ويعددون فيها الخسائر التي يصعب تصديقها، فالعلماء المحدثون يقدرون أن القوتين المتصارعتين في بلاتيا كانتا متكافئتين وأن عددًا غير قليل من الجنود الفرس تقهقروا حين بدأت الدائرة تدور عليهم. وإن كان من الواضح أنهم لاقوا وقتًا عصيبًا خلال تراجعهم إلى آسيا واصطدامهم بالبواتيانيين والثيساليانيين والمقدونيين والثراسيانيين في شمال شبه الجزيرة الذين انقلبوا على الجانب الآخر حين أدركوا أن الانتصار أصبح حليفا للهيلينيين وليس للفرس. ولم يعد إلى آسيا إلا فلول متناثرة من بقايا ذاك الجيش.

ومن حسن حظ الفرس أن الإغريق لم يتمكنوا من تحقيق وحدة داخلية بين الولايات، فبعد عدة عقود من التحالفات التي استهدفت تخريب أراضي الفرس وقعت معركة طاحنة بين الأثينيين والإسبرطيين في الأراضي اليونانية أسفرت عن عجز اليونانيين عن القيام بأي غزو خارجي. فقد أضعفت الحرب البلوبونيزية التي نشبت بين عامي ٤٣١–٤٠٤ ق.م الولايات المختلفة، ولكن بعد فترة قصيرة تمكن عشرة آلاف من الجنود المرتزقة اليونانيين من اختراق قلب الإمبراطورية الفارسية بسهولة، معلنين بذلك عودة تفوق الجيش اليوناني، كما أنه في القرن الرابع قبل الميلاد نادى الفيلسوف اليوناني سقراط بتجهيز حملة كبيرة يهب فيها اليونانيون جميعًا للتغلب على الفرس.

وقد تحققت آمال سقراط في النصف الثاني من القرن الرابع ليس عن طريق المدن المستقلة الشهيرة في كلاسيكيات اليونان ولكن بواسطة ولاية مقدونيا، وهي أرض جبلية جزئيًّا يقطنها يونانيون أشداء تقع بجوار هضبة البلقان. ففي عام ٣٥٩ ق.م تولى العرش ملك شاب نابه يدعى فيليب الثاني Phillip II، نجح في التغلب على القبائل التي تسكن الجبال المحيطة بمقدونيا، وفي عالم اليونان الذي كان يسود فيه نظام المدن المستقلة التي يرتبط بعضها ببعض من خلال أحلاف وتكتلات؛ أصبحت مقدونيا أول دولة كاملة، ووصل عدد سكانها إلى أربعة ملايين نسمة تقريبًا، وكانت تشمل مساحة كبيرة من الأراضي الغنية بالأخشاب والمعادن. ومن المثير للعجب أنه مع تزايد القوة العسكرية لمقدونيا تمكنت أيضًا من اكتساب المزيد من الثقافة الهيلينية فقد بدأت تجتذب إليها الفنانين والعلماء من البلاد الأخرى، وعهد إلى أرسطو بمهمة تعليم ابن الملك وبعض النبلاء الآخرين، في حين تحول البلاط الملكي في بيللا إلى مغناطيس يجذب المنفيين من اليونانيين والفرس الذين كانوا يطلبون الحماية ويبحثون عن النفوذ لدى تلك القوة الشابة الناشئة.

استخدم فيليب الثاني توسعاته في الأراضي وتزايد ثروته ليشكل أقوى جيش عرفه العالم. وفي بداية حياته عاش فيليب في طيبة التي ازدهرت وتسيدت شبه الجزيرة الجنوبي في ظل حكم إيبامينودس Epaminodes العظيم الذي نجح في هزيمة الإسبرطيين في انتصارات مذهلة. وكان التخطيط الذي ابتدعه إيبامينودس هو استخدام الجبهة الأمامية القوية من الفالانكس ليخفي قوته الحقيقية في نقطة ما، مستحدثًا بذلك نمطًا من المرونة في أسلوب المعارك أصبح

بعد ذلك طقسًا من طقوس الحرب. بالإضافة إلى استخدام سلاح المشاة المدرب جيدًا لنوع من الحراب الطويلة اسمها «ساريسا» تفوقت تكتيكيًّا على أسلوب «الهوبلايت» اليوناني التقليدي. كما عمد المقدونيون أيضًا — بالتحالف مع الثيساليانيين — إلى إعداد تشكيلات كبيرة من سلاح الفرسان الثقيل الذي لم يكن متوافرًا لدى الهيلينيين. وجغرافيا نجد أن مقدونيا تشكل جسرًا بين اليونان والفرس، وكان امتزاج نظامها السياسي الأوتوقراطي بتطلعاتها إلى الثقافة الهيلينية يضعها في موقع متميز يمكنها من الانتصار على الهيلينيين والفرس.

وفي عام ٣٣٨ ق.م اتجه الجيش المقدوني جنوبًا ليقهر التحالف بين أهالي طيبة والأثينيين في معركة شارونية، وتمثلت أروع مناورة في ذلك الوقت في هجوم سلاح الفرسان بقيادة ابن فيليب المراهق على القوة المعادية الأخرى من الصفوة التي يطلق عليها «جماعة طيبة المقدسة». ومن بين ثلاثمائة محارب كانوا مقسمين إلى مائة وخمسين زوجًا من الشواذ جنسيًّا، لم ينجُ سوى ستة وأربعين استسلموا للغزاة. وكانت نتيجة هذه المعركة أن أرغم فيليب اليونانيين على الدخول معه في تحالف أسماه حلف كورنثيا، رأى أنه سوف يدعم طموحه الثاني وهو غزو الشرق.

قتل فيليب الثاني عام ٣٣٦ ق.م في عشية حملته الهيلينية الشاملة ضد الإمبراطورية الفارسية. وفي ذلك الوقت كان بارمينيو Parmenio — وهو من أكفأ قادة جيشه — قد وصل إلى هيليزبونت في آسيا الصغرى حيث عسكر هناك منتظرًا الجيش. ولكن فور قتل فيليب الثاني ثارت العديد من الولايات التي كان قد استولى عليها، دون أن يجول بخاطرهم أن وريثه الذي يبلغ العشرين من عمره لا يقل عنه قوة، بل سوف يبرهن على أن طموحه قد تخطى طموح وأطماع والده. وكان الأمير الشاب قد اتجه بقواته إلى الشمال متغلبًا في طريقه على قبائل الإليريان والتراسيان التي تسكن الجبال في شمال اليونان وألبانيا الآن، ثم قفل راجعًا ليخمد ثورة هيلينية اندلعت في مدينة طيبة، فدمر المدينة بالكامل بعد أن قتل كل رجالها وسبى نساءها وأطفالها. وبعد هذا الاستعراض المرعب للقوة المقدونية بدأت الحملة التي خطط لها طويلًا ضد الإمبراطورية الفارسية في آسيا، وبعد ذلك لم يكتف الابن بانتصاره على الفرس بل حاول أن يسعى بجيشه إلى نهاية الأرض التي ظن خطأ بأنها تقع فيما وراء أفغانستان.

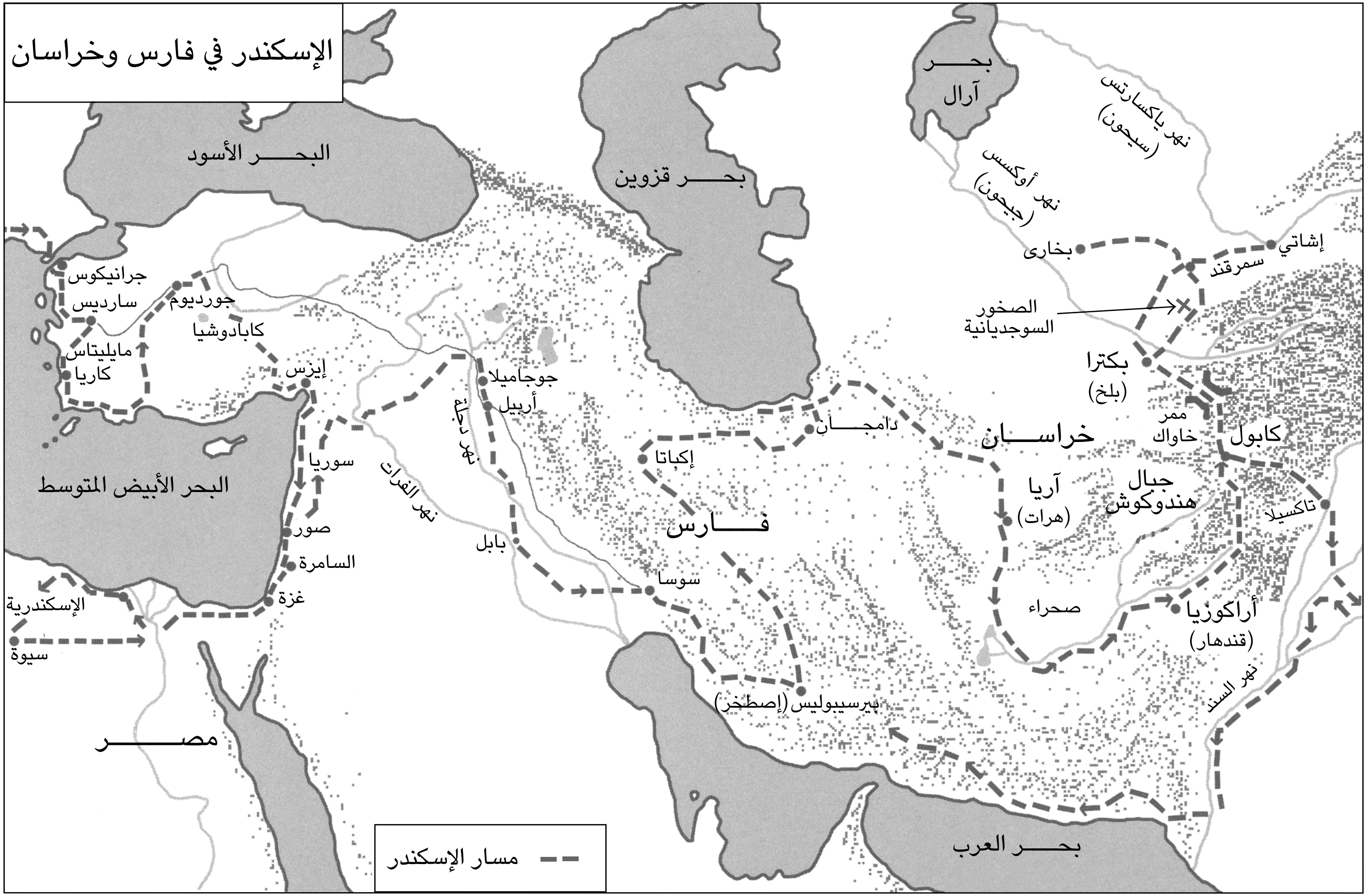
الإسكندر في فارس وخراسان
البحـــر الأسود
بحـــر قزوين
بحـــر آرال
نهر ياكسارتس (سيحون)
نهر أوكسس (جيحون)
إشاتي
سمرقند
بخارى
الصخور السوجديانية
بكترا (بلخ)
ممر خاواك
كابول
خراســـان
آريا (هرات)
جبال هندوكوش
تاكسيلا
صحراء
أراكوزيا (قندهار)
نهر السند
دامجـــان
إكباتا
فـــارس
سوسا
بيرسيبوليس (إصطخر)
جرانيكوس
سارديس
جورديوم
كابادوشيا
مايليتاس
كاريا
إيزس
جوجاميلا
أربيل
نهر دجلة
نهر الفرات
بابل
سوريا
صور
السامرة
غزة
البحر الأبيض المتوسط
الإسكندرية
سيوة
مصـــــــر
بحـــر العرب
مسار الإسكندر

الفصل الثاني

الإسكندر الأكبر

عام ٣٢٩ ق.م تطلع المشاهدون للوادي الذي يقع بين السفوح الجرداء لجبال الهندوكوش إلى موكب مهيب من الغزاة يتقدمه مجموعة من الفرسان، وكانوا بين كل فينة وأخرى يتقهقرون إلى الخلف في تشكيلات أحادية وثنائية تجاه قائد هذا الموكب، وكان هناك مجموعة من الرماة الراجلين يقومون بمسح المرتفعات بمحاذاة جناحي الجيش، وعلى الطريق في سفح الوادي وعلى بعد ما ترى العين امتد حشد ضخم من الفرسان والمشاة المدججين بالسلاح، كانت وجوههم قد لفحتها الشمس، ودروعهم تلمع كشريط من النار لا نهاية له، وبخلاف الفرس لم يكن مع هؤلاء القادمين الجدد إلا قليل من المتاع وبعض الخدم، ولكن كان من الواضح أنهم من المحاربين الأشداء.

ولم يكن من الصعب تمييز قائد هذا الموكب، لكن مظهره كان مفاجئًا لمن رآه. كانت طليعة الموكب تضم مجموعة من الرجال ضخام الجثة يرتدون خوذات يزينها الريش، وعلى أجسادهم سترات قرمزية اللون بلا أكمام، وكان لأغلبهم لحى طويلة شهباء، ويسيرون بخيلاء كأنهم ملوك، ولكن حين توقف الموكب تمحورت الحركة كلها حول شخص واحد، شاب مفتول العضلات في منتصف العشرينيات من عمره، متوسط الطول ذي بشرة حمراء وردية، ووجه حليق يحيطه شعر متموج يطول حتى ينسدل على كتفيه تقريبًا. وكان يتحرك بسرعة ورشاقة الرياضيين، ويبث فيمن حوله قوة تشوبها الحدة والتوتر، وصوته الأجش الحاد بعض الشيء يتردد بين التلال وهو يعطي أوامره بسرعة. وكان من الممكن في لحظة ما أن تلتقي نظرات المتطلعين إلى هذا المشهد من أعلى الوادي بنظرات قائد هؤلاء الأعداء وهو يجول ببصره في الأراضي المحيطة به، وقد مال برأسه قليلًا جانبًا بطريقة فيها شيء من الغرابة، وفي هذه الحالة

كانوا سيواجهون ولو للحظة خاطفة واحدًا من أبرز الشخصيات التي ظهرت في التاريخ.

يعد الإسكندر الأكبر من أنجح الغزاة الفاتحين في الزمن القديم، بل ربما كان أهم قائد عسكري في التاريخ. فلم يتمتع أي من القواد الذين يماثلونه فيما حققه من نجاحات وانتصارات بهذه الدرجة من التكامل في الشخصية العسكرية، بدءًا من القدرة على التخطيط الاستراتيجي إلى براعة التكتيك ثم الشجاعة في ميدان القتال. وقد قيل إن يوليوس قيصر بكى وهو يقترب من سن الأربعين حين شاهد تمثال الإسكندر؛ لأنه حتى هذه اللحظة لم يكن قد حقق سوى القليل من أحلامه، في حين أن هذا المقدوني قهر العالم وهو في العشرينيات من عمره.

كان في شخصية الإسكندر جانب ديني أو روحاني يثير اهتمام مترجمي السير الذاتية، فقد كان يعتقد منذ صغره أنه ينحدر من نسل هرقل من جهة الأب، ومن نسل أخيل من جهة الأم أو على وجه التحديد من زواج ابن أخيل نيوبوتولموس بأندروماك أرملة هكتور بطل طروادة. وكانت إحدى عينيه ذات لون أزرق يميل إلى الرمادي في حين كانت الأخرى بنية اللون وهي مفارقة غريبة لها مغزى خاص عزز اعتقاده. وقبل غزوه آسيا أخبرته أمه أنه ابن الإله زيوس مباشرة، وهي مقولة يمكن للقارئ الحديث أن يتلقفها كيفما يشاء، لكن الإسكندر آمن بها تمامًا. ومع تزايد قوته تزايد أيضًا هذا الجانب الروحاني الغامض في شخصيته خاصة وأن الحظ (وهو إله يوناني) كان يسانده في كل تحركاته، وبلغ من إيمانه بهذه المقولة أن أصبحت قوة مقدونيا السياسية لا تهمه في شيء بعد أن تصور نفسه يحكم عالمًا متحدًا، لكنه كان عليه لتحقيق ذلك أن يقهر الإمبراطورية الفارسية أولًا.

بدأ غزو المقدوني لآسيا في ربيع عام ٣٣٤ ق.م تحت رعاية هيلينية شاملة، لكن الإسكندر بعد عبوره هيلزبونت توقف عند إيليوم — وهي ما كانت تعرف قديمًا بطروادة — ليستولي على درع أخيل الذي كان محفوظًا في محراب. وبعد ذلك كان عليه أن يخوض ثلاث معارك كبرى ضد الفرس في ساحات قتال مفتوحة، وكان خصم الإسكندر في هذا الصراع هو داريوس الثالث Darius III الذي كان محاربًا طويل القامة وسيمًا ينحدر من سلالة الأكامينيد، وكان قد

دُفع به إلى العرش بسرعة حتى يمكنه الدفاع عن إمبراطوريته ضد التهديد الإغريقي.

كانت المعركة الأولى عند نهر جرانيكوس في شمال غرب تركيا بعد وصوله آسيا مباشرة، وكان حكام الأقاليم الفارسية قد حشدوا جيشًا كبيرًا ضم الحامية الملكية والهوبلايت اليونانيين والمجندين المحليين، بالإضافة إلى ألفين من الفرسان الباكتريانيين جاءوا من مسافة ألفي ميل هي بعد موطنهم عن ميدان المعركة. وكان لهؤلاء الخيالة تقدير خاص في العالم القديم، وقد استخدمهم ملوك الفرس بوصفهم قوات متحركة خاصة ذات تدريب راق، أما الفرق اليونانية، سواء من المواطنين أو من الجند المأجورين، فقد كانت أقوى عناصر الجيش، وكان يقودها قائد بارز من روديسيا يدعى ممنون Memnon، وفيما عدا المواطنين المحليين من اليونان كانت آسيا الصغرى قد تعرضت قبل ذلك لغزو جيوش من أثينا ومن إسبرطة، ومن ثم لم يكن هذا الغزو بالشيء الجديد عليهم؛ فقد سبق لهم الاشتباك مع قوات من مقدونيا بقيادة بارمينيو مدة عام حققوا خلالها بعض الانتصارات، فلم يجدوا أي مبرر هذه المرة للتخوف من ملك شاب في الثانية والعشرين من عمره يتميز بالتهور والاندفاع. ولذلك اتخذ الفرس مواقعهم خلف ضفاف نهر جرانيكوس الشديدة الانحدار، وفي وقت متأخر من بعد ظهر أحد أيام شهر مايو/أيار وصل الجيش المقدوني إلى الشاطئ البعيد على الجانب الآخر.

بدأت المعركة بعبور الخيالة بقيادة الإسكندر ورفاقه المختارين من الفرسان مندفعين نحو النهر. وهنا تختلف الروايات القديمة عن سير المعركة بعد ذلك، فالبعض يصفها بأنها كانت معركة أرضية، في حين يقول آخرون إن حائطًا من فرسان الأعداء اصطف على الشاطئ البعيد ليجبر المقدونيين على القتال في النهر، وقد قتل خمسة وعشرون من رفقاء الإسكندر في هذه الطلعة الأولى، لكن المقدونيين — حسبما قال المؤرخ ديودوروس Diodorus — تمكنوا في اليوم التالي من عبور النهر ليبدأ القتال على أرض صلبة تحت أقدامهم.

لكن جميع المصادر قد اتفقت في وصف حالة الإسكندر وهو في ذروة هذه المعركة، فحين انكسر رمحه استعار رمحًا آخر من أحد جنوده، وفي تلك اللحظة شاهد زوج ابنة داريوس — ميثريداتس Mithridiates — وهو يقبل عليه على رأس قوة من خيالة الفرس، فاندفع الإسكندر إلى الأمام بعيدًا عن

رفاقه، وألقى برمحه في وجه ميثيريداتس فطرحه أرضًا، وهنا هاجمه أحد نبلاء الفرس ويدعى رويزاسيس Rhoesaces فضرب خوذته بسيفه وكسر جزءًا منها، ومع أن الإسكندر فقد اتزانه للحظات فقد تمكن من طعن عدوه في صدره. وفي هذه اللحظة جاء سبيثريداتس Spithridates حاكم ليديا وإيونيا من خلف الإسكندر وقد شهر سيفه ليقتله، فرآه كلايتوس Cleitus — أحد رفقاء الإسكندر — فهجم عليه وبتر ساعده.

ومع تزايد مجموعة الفرسان والقوات الخفيفة التي انضمت إلى القتال بدأت خيالة الفرس التي كانت في وسط الجيش في الفرار من المعركة وتبعها الجناحان، أما الجزء الأعظم من الخيالة فقد فروا دون أن يطاردهم جيش الإسكندر، حيث كان اهتمامه منصبًّا على قوات المشاة اليونانية المتحالفة مع الفرس، التي كان عددها حوالي عشرين ألفًا من المحاربين الأشداء الذين ظلوا صامدين في المعركة. وحسبما يقول آريان: «لم يكن هذا لأنهم كانوا مصممين على الصمود، ولكن لدهشتهم غير المتوقعة من نتيجة المعركة. وهنا تقدم الإسكندر على رأس قواته من الفالانكس وأمر فرسانه بتطويقهم من كل جانب، وقتلهم جميعًا فيما عدا هؤلاء الذين نجحوا في الاختباء بين جثث القتلى، وأُسِرَ نحو ألفي محارب في هذه المعركة.»

أما من الناحية الاستراتيجية فقد واجه الإسكندر أعظم خطر داهمه حين بدأ يتوغل في عمق آسيا متجهًا إلى سوريا، فقد علم أن الملك العظيم داريوس قد بدأ استعداداته للحرب من بابل بعد أن جمع جيشًا جرارًا في طريقه من البلاد المختلفة التي كانت تحت سيطرته. ثم عهد إلى ممنون بقيادة القوات الموجودة في البحر المتوسط وكذلك الأسطول الفارسي. وقد وضع ممنون استراتيجية تحالف بين الإمبراطورية الفارسية واليونان الهيلينية للقضاء على المقدونيين المغرورين. وهي استراتيجية سبق تطبيقها بنجاح مرتين في التاريخ العسكري للفرس. ففي خلال الحرب البيلوبونيزية كان الفرس قد دفعوا بإمدادات إلى إسبرطة لفك سيطرة الأثينيين على الشاطئ الأيوني. وبعد أن قويت إسبرطة قام الفرس بتقديم المعونة إلى أثينا وطيبة للتحرر من قبضة إسبرطة، وفي كلتا الحالتين اضطرت القوات المغيرة إلى الانسحاب من آسيا الصغرى لإخماد التوترات والتمرد في اليونان، ومع عمق توغل الإسكندر في آسيا، لجأ الفرس مرة ثانية إلى إرسال الذهب، بالإضافة إلى قوات عسكرية إذا لزم الأمر إلى

الولايات اليونانية القوية في الجبهة الخلفية. فقد كان الفرس في ذلك الوقت ما زالوا يملكون النقود والكثير من البدائل.

استمر الإسكندر في التوغل داخل آسيا الصغرى تاركا وراءه أنتيباتير Antipater حاكم مقدونيا ومعه الآلاف من المقاتلين ليقمع أي ثورة، وكان على ثقة من مقدرته الخاصة على القضاء على أي هجوم مضاد. وبعد جرانيكوس وصل الإسكندر إلى بلدة تدعى جورديوم كانت تمتلك عقدة شهيرة ترتبط بأسطورة مفادها أن من يستطيع حل هذه العقدة سوف يحكم آسيا. وبعد تفكير في كيفية حل هذه المشكلة أخرج الملك المقدوني سيفه ببساطة وقطعها نصفين، وفي السنة التالية جاءت ضربة حظ أخرى للإسكندر حين مرض ممنون وتوفي بعد أن انتصر جيشه في كيوس ولسبوس وبذلك رحل القائد الوحيد الذي أعلن الحرب على الملك المقدوني حين قام بتهديده.

ورغم أن مكائد الفرس ورِشاهم ومناوراتهم البحرية هددت جبهة الإسكندر الخلفية فإن مشكلة أخرى عاجلة برزت أمامه في المنطقة التي تتلاقى فيها تركيا الحديثة مع سوريا. ففي لعبة القط والفأر بين المقاتلين كان جيش داريوس الثالث قد اخترق الممرات التي تفصل بين شاطئ البحر المتوسط وآسيا الكبرى ليهاجم المقدونيين من الخلف، وكان الإسكندر قد ترك جرحاه ومرضاه في قرية تقع على شاطئ البحر تدعى إيسوس، فهاجم الفرس المعسكر وقتلوا كل من فيه ومثلوا بهم. وبعدها استعد داريوس للمعركة معسكرًا بقواته خلف نهر بيداروس الذي يخترق سهلًا ضيقًا بين جبال سيليسيان والشاطئ. فاستدار المقدونيون واتجهوا صوب هذا الموقع. وكان الملك العظيم قد أقام تحصيناته في بعض نقاط على النهر، وهو الأمر الذي عده المقدونيون دليلًا على خوف الفرس منهم.

وكان جيش داريوس يتفوق عدديًّا على جيش الإسكندر الذي كان يضم ٤٨٠٠٠ مقاتل لكن اختياره لميدان المعركة الضيق ذاك أضعف كثيرًا من تفوقه. وتشكلت قوات الفرس من المقاطعات الغربية للإمبراطورية. يقول المؤرخ الروماني كيرتيوس Curtius: «أما بخصوص الجنود من الباكتريان، والسوجديان، والهنود وبقية الجيش ... وهي أسماء كانت مجهولة حتى بالنسبة لداريوس، فقد حالت سرعة تحرك الجيش دون استدعائهم»، وكان داريوس يمتلك قوتين أساسيتين، فبالإضافة إلى جيش الإمبراطورية كان قد

جمع كل جنود الهوبلايت الأشداء من اليونانيين، وعددهم حوالي ثلاثين ألفًا عدا الفرسان الذين بلغ عددهم عشرين ألفًا بالمقارنة بجيش الإسكندر الذي كان يضم ستة آلاف وخمسين جنديًّا فقط. كما كان لدى الفرس حاجز دفاعي يتمثل في النهر بشاطئه المنحدر في أجزاء والمحصن في أجزاء أخرى.

وفي أكتوبر/تشرين الأول سنة ٣٣٣ ق.م في بلدة إيسوس بدأ المقدونيون يتقدمون ببطء نحو خطوط الأعداء، وكان الجناح الأيمن بقيادة الإسكندر يلتزم سفح الجبال في حين أن بارمينيو كان يقود الجناح الأيسر على امتداد الشاطئ. وفي اللحظة الأخيرة لمح الإسكندر قوة كبيرة من خيالة الفرس على امتداد الشاطئ، فأسرع بإرسال فرسانه من الثيساليان — مثلما يفعل المهاجمون في لعبة كرة القدم الأمريكية — خلف خطوطه من اليمين وحتى أقصى الشمال بعد أن اختفت تحركاتهم وراء المشاة الفلانكس المتجمعين بكثافة في الجبهة الأمامية. وبعدها بدأ الجناح الأيمن للمقدونيين في الهجوم.

قاد الإسكندر الهجوم وهو على رأس سلاح فرسانه معتمدًا على السرعة ليضعف من تأثير سهام الفرس التي انهالت عليهم، ومتفاديًا قذائفهم بعد أن غطى رأسه بدرعه، فوصل إلى خط رماة السهام الذين تملكهم الرعب فور رؤيته فانهاروا فورًا، ولم يستطع الفرس على الجانب الأيسر مقاومة فرسان الإسكندر ومن تبعهم من المشاة، فانهار الجناح الأيسر من جيشهم، أما في الوسط فلم تتقدم قوات المشاة الفلانكس لمواجهة اليونانيين من جيش داريوس الذين كانوا يتخبطون في النهر وقد تمزقت ملابسهم، في حين ظل المشاة الهوبلايت اليونانيون صامدين في مواقعهم. وعلى جانب الشاطئ بدأ هجوم خيالة الفرس عبر النهر ليضغطوا على بارمينيو الذي لم يكن لديه فرصة للمناورة، إذ كانت التعليمات الصادرة إليه أن يبقي جناح جيشه مواجهًا للبحر.

وكان النجاح الوحيد الذي حققه المقدونيون هو ما فعله الإسكندر في يمين الجيش، فبعد فرار قوات الفرس من هذا الجانب استدار بفرسانه إلى حيث يوجد اليونانيون في الوسط، فهاجمهم من الجناح والخلف متجهًا إلى الوسط حيث كان داريوس. ويقول كورتيوس: «وهنا ظهرت أبعاد هذه الملحمة العظيمة، فحول عربة داريوس استلقت جثث أشهر قادة جيشه الذين استسلموا للموت أمام أعين مليكهم وقد أثخنت الجراح أجسادهم.» وحين بدأ

اليونانيون في الاستسلام، وانهار الجنود الفرس الذين كانوا يحرسون الملك، كان على داريوس أن يتخذ قرارًا سريعًا: إما أن يُقتل أو يُؤسر في أول معركة مع الإسكندر، أو يتقهقر وينقذ إمبراطوريته. وحين بدأ الإسكندر هجومه على اليونانيين اختار داريوس أن يعيش، فهرب من المعركة.

بعد فرار الملك العظيم، أصبح جيشه من الجنود اليونانيين المأجورين في حالة فوضى عارمة، فرغم أنهم صمدوا في موقعهم في الوسط فإن المقدونيين كانوا خلفهم من اليسار، فساد الارتباك صفوفهم وبدأ الجيش في الانفراط ثم الهروب. وعلى الجانب الأيمن كان واضحًا أن الجيش الفارسي قد بدأ يتراجع، وأن قواته قد خسرت المعركة. وفي إيسوس كان المقدونيون يذبحون جنود الجيش المتقهقر، ربما لأن الفرسان — وهم آخر من تراجع — كانوا يطئون مشاتهم بأقدامهم. وفي الممرات الضيقة التي كانت المهرب الوحيد أمامهم اختلطت قوات الجيش المندحر بعضها ببعض، يقول المؤرخ بطليموس الذي أصبح فيما بعد ملكًا، والذي كان بجوار الإسكندر: «إن الرجال الذين كانوا معهم يتبعون داريوس عبروا الوادي الضيق على جثث القتلى.»

بعد المعركة استولى الإسكندر — الذي كان قد جرح في فخذه — على مركبة داريوس الملكية، وعلى الخيمة الرئيسية التي كانت تضم زوجته وأولاده وأمه. كما استولى أيضًا على كمية كبيرة من الذهب، وأرسل بارمينيو بسرعة إلى دمشق ليستحوذ على المزيد من الثروة الملكية.

وحتى هذه اللحظة كان الإسكندر — مثل أبيه — يتحرك في أضيق الحدود، أما بعد ذلك فقد وضع في أولوياته أن يتجه صوب شاطئ البحر المتوسط عازمًا أن يقضي في طريقه على الأسطول الفارسي، وأن ينهي أي إمكانية للفرس لمساعدة أي تمرد في اليونان. وبعد محاصرته بلدتي تاير وغزة وصل إلى مصر حيث استقبل استقبال الفاتحين وتوج فرعونًا. وأثناء وجوده في مصر شيد مدينة الإسكندرية، وقام برحلة غامضة في الصحراء إلى معبد الإله آمون ليستشيره — ويعتبر اليونانيون الإله آمون قرين الإله زيوس. وفي معبد آمون تلقى الإسكندر نوعًا من التشجيع الغامض ليزداد إيمانه بأنه فعلًا سليل الآلهة.

وحين غادر الإسكندر مصر عائدًا إلى آسيا في أوائل عام ٣٣١ ق.م أرسل له داريوس يعلمه برغبته في السلام، وقد عرض الملك العظيم على اليونانيين

كل الأراضي الواقعة غرب نهر الفرات، كما عرض ١٠ آلاف طالين ذهبًا كجزية بالإضافة إلى فدية ليطلق سراح أسرته. وقد أيد بارمينيو — وهو اليد اليمنى للإسكندر وأفضل قادته — هذا العرض، وقال له: «لو كنت الإسكندر لقبلت هذا العرض.» وكان رد الإسكندر: «ولو كنت أنا بارمينيو لقبلته أيضًا.» واستمر الجيش المقدوني في التقدم فعبر نهر الفرات ثم نهر تيجريس. وكان الخيالة الفرس يتساقطون أمامه وهو في طريقه، وخلال ذلك كان الإسكندر يقوم بجمع المعلومات فيرسل فرسانه أولًا لتقييم الموقف حتى يمكنه التعامل معه. وفي المرة الأخرى الوحيدة التي اتجهت فيها قوات يونانية إلى بلاد الرافدين عام ٤٠١ ق.م كان جنود إسبرطة «العشرة آلاف» قد هزموا مشاة الأعداء بسهولة. وكان الإسكندر قد تأكد من وجهة نظر زينوفون Xenophon بأن المجندين البابليين ليسوا على مستوى القوات النظامية المسلحة جيدًا القادمة من الغرب.

شعر الإسكندر بشيء من القلق حين وصل في سبتمبر/أيلول عام ٣٣١ ق.م إلى ربوة صغيرة ولمح منها الجيش الجديد الذي أعده داريوس الثالث، وكان داريوس قد بدأ تحركه ونشاطه خلال العامين اللذين قضاهما الإسكندر في فلسطين ومصر. فبعد تنازله عن أراض كثيرة في الغرب بدأ في استدعاء قوات من الولايات الشرقية لصد الغزو المتوقع، ولم تكن القوات الجديدة تضم أفرادًا مجندين إجباريًّا من مزارع بلاد الرافدين، بل كانوا فرسانًا مقاتلين من أفغانستان والأراضي المجاورة لها، من البكتريان، والسيثيانيين، والبارثيانيين، والأراكوزيانيين، والأريانيين والهنود. وكان الاستنزاف الذي حدث في قوات الإسكندر قد تم تداركه في مقدونيا، إذ وصل جيشه إلى ٤٨٠٠٠ جندي منهم حوالي ٧٠٠٠ من الفرسان. لكن سلاح الفرسان التابع لداريوس كان يضم ٣٥٠٠٠ فارس، وكان ما زال يحتفظ بفرق المشاة الهوبلايت بالإضافة إلى العشرة آلاف الخالدين المدججين بالسلاح، وأيضًا قوات أخرى مدربة مع مجموعة ضخمة من المجندين أضفت على جيش الفرس ضخامة إن لم يكن نظامًا.

كان داريوس قد تعلم ألا يحتفظ بقواته الكبيرة العدد في مكان ثابت؛ فيقلل من كفاءتها كما حدث في إيسوس، أو خلف مواقع ثابتة أيضًا كما حدث في جرانيكوس. ففي كلتا الحالتين فقد سلاح الفرسان ميزته في الحركة فتشتتت القوات. ويبدو أن داريوس قد استشرف — إن لم يكن قد وعى

جيدًا — مستقبل فنون الحرب في آسيا في العصور اللاحقة التي سوف تستمر حتى اختراع البارود. فترك لجنوده من حملة الرماح والأسهم حرية الحركة، وهو الحل الأمثل لتنظيم فرق المشاة في اليونان (والرومان). ورغم أنه في المعركة التالية حاول داريوس أن يعطي مساحة واسعة لمناورات الفرسان، فإنه ظل متمسكًا أيضًا بمفهوم المواجهة في المعارك.

جهز داريوس ساحة قتال تغطي امتداد شريط طويل من سهل يقع بجوار قرية جوجاميلا على بعد سبعين ميلًا من الشمال الغربي لبلدة أربيل في العراق حاليًّا. وكان مهتمًّا بصفة خاصة بالطرق التي يمكنه أن يسيِّر فيها مائتين من مركبات الحرب المجهزة بمناجل طويلة تبرز من الجانبين لا تستخدم في القتال ولكن كأداة تعطيل، إذ إن المركبات كانت هي في حد ذاتها السلاح الرئيسي. ولأنه تعلم أن الإسكندر كان دائمًا يهاجم من اليمين فقد وضع مائة مركبة على هذا الجانب، وخمسين في الوسط، والخمسين الأخرى إلى يسار الجيش المقدوني.

كان مازيوس Mazaeus، حاكم سوريا على رأس قوات اليمين. أما إلى اليسار — في مواجهة الإسكندر — فقد كانت بقيادة بيزوس Bessus حاكم باكتريا. وقد وضع بيزوس وحدات من فرسانه مع السيثيانيين في مقدمة القوات الرئيسية الراكبة التي كانت تضم جنودًا من الباكتريان، والأراكوزيان، والداهاي (إحدى قبائل السيثيان) وغيرهم. أما الخط الأمامي للجيش فقد كان يموج بالفرسان، وفي الوسط تمركزت فرق المشاة المدربة المدججة بالسلاح. أما المجندون المشاة فقد وضعوا في صفوف متوازية كل منها إلى يمين أو يسار الصف الذي يتقدمه بحيث يتخذ المجموع شكل درجات السلم، وإن كان المظهر العام يوحي بمجاميع تفتقد التنظيم.

حين وصل الإسكندر إلى الموقع بدأ يتحرك في حذر، بل إنه في واقع الأمر انتظر أربعة أيام، ولأنه كان قد عزز إمداداته فقد يكون تأخيره راجعًا إلى محاولته إضعاف القوات الفارسية الكبيرة من خلال تجويعهم ومن ثم تحطيم معنوياتهم. وفيما عدا ذلك كانت مشكلته أن قواته غير متعادلة مع القوات الفارسية الضخمة التي اصطفت في مقدمة ميدان القتال الواسع، ومع معرفته بتفوق خيالة العدو أدرك الإسكندر من البداية أنه سوف ينهزم. وكان الحل أمامه أن ينظم جيشه على شكل مستطيل تقريبًا، ثم صف سلاح

المشاة الثقيل في المقدمة، في حين جعل مجموعة رفاقه من الفرسان إلى اليمين، والخيالة من الثيسياليين بقيادة بارمينيو إلى اليسار. وأضاف بعض القوات إلى جناحي الجيش في وضع مائل إلى الخلف، كما استحدث خطًّا إضافيًّا آخر في مؤخرة الجيش يضم المشاة من التحالف اليوناني (وتعتبر هذه الحالة الأولى في استخدام قوات احتياطية في الجيش)، وبعد ذلك خطط لمناورة عبقرية.

في اليوم الأول من شهر أكتوبر/تشرين الأول سنة ٣٣١ ق.م بدأ الإسكندر المعركة، وكما سبق أن حدث في إيسوس فقد تقدم بالجناح الأيمن مع سحب الجناح الأيسر بقيادة بارمينيو، لكن الجيش بأكمله أيضًا انحرف ناحية اليمين وكان يهدف من وراء الانحراف إلى الأمام إلى إجبار الفرس على ملاقاة الجناح الأيمن وإيهامهم بأن المكان والفرصة متاحان لجيش الفرس للتدفق من الجانب الأيسر. أما الإسكندر فقد أبقى «الفرسان الرفقاء» بجواره في انتظار الارتباك المحتوم الذي توقع أن يسود خطوط الأعداء. وكان هدفه منذ البداية إيجاد نقطة ضعف في وسط الجيش الفارسي الذي يعلم — حسب التقاليد — أن داريوس يتخذه موقعًا له.

تقدم المقدونيون كنذر شرٍّ إلى الأمام في ساحة القتال، وحين بدأ جيشهم الصغير في الميل جانبًا بدأ الجناح الأيسر للفرس يفقد كفة الرجحان، في حين اكتسب الجناح الأيمن تميزًا واضحًا بل إنهم نجحوا في واقع الأمر في إحداث ثغرة في جانب قوات بارمينيو، لكن تقدم القوات المقدونية بانتظام سرعان ما هدد بالوصول إلى حافة ساحة القتال الخالية، مما اضطر داريوس إلى القيام برد فعل سريع، فأمر الآلاف من الخيالة الباكتريان والسيثيان المتمركزين في اليسار بالانقضاض على الجناح الأيمن لجيش الإسكندر حتى يوقف تحركه. وحين بدأ جناح الجيش في الاهتزاز أطلق داريوس العنان لمركباته لتهاجم مقدمة جيش الأعداء.

كانت العجلات الحربية — حتى تلك التي يمتلكها الفرس — قد أصبحت وسيلة حربية عفا عليها الزمن بالنسبة لليونانيين، لذلك وجد الفرس أنفسهم في مهمة انتحارية لا يحسدون عليها. فقد كانت العجلات بحاجة إلى سرعة عالية، ودعم من القوات المصاحبة لها التي لا تستطيع أن تجاريها في السرعة. لذلك وقعت عليها مهمة القيام بالهجوم وحدها على آلاف الجنود المقدونيين المسلحين جيدًا. وكان الإسكندر قد توقع استخدام

الفرس للمركبات فوضع حاملي السهام والحراب في مقدمة الصفوف الأولى لتمطر الأحصنة والمركبات بوابل من أسلحتها. وتوقفت بعض المركبات، ومال البعض الآخر، وانقلب الكثير منها في الساحة المفتوحة. أما أولئك الذين تقدموا ليخترقوا صفوف جيش الإسكندر حيث فتح لهم الجنود طريقًا لسيرهم فقد أحاط بهم الجنود من الخلف لينقضوا عليهم ويقتلوهم. وكان من المستحيل عليهم أن يستديروا عائدين — دون حماية لظهورهم — ليصلوا إلى خطوطهم.

وعلى الجانب الأيمن من الجيش المقدوني نجح الفرسان الباكتريان والسيثيان المسلحين جيدًا في التغلب على دفاع هذا الجناح، ولأن النجاح يولد النجاح فقد تدفق الجناح الأيسر من الجيش الفارسي تجاه اليمين، لكن الإسكندر كان قد وضع فرقة مشاة خلف الجناح الأيمن ولذلك ظل الجناح ثابتًا. أما في الجناح الأيسر الذي كان مفتوحًا أمام الفرس فقد كان بارمينيو يعاني مشكلة حادة. فقد شن عليه عدد كبير من الفرسان هجومًا ضاريًا التهم قوات غفيرة من المشاة. وفي الوسط تقدم الفالانكس ليشتبكوا مع نظائرهم من المقاتلين الخالدين. وعندما بدأ الجناح الأيسر من الجيش المقدوني في التكتل لمقاومة الأعداد الضخمة التي هاجمته، فُتحت ثغرة بين بارمينيو ووسط الجيش اندفع إليها الآلاف من خيالة الفرس والهنود يهاجمون أمتعة المقدونيين، حتى انشغلوا بأعمال السلب والنهب.

وتقول إحدى أساطير الإسكندر إن أم داريوس — الملكة سيسي جامبيز Sisygambis رفضت أن يطلق مواطنوها سراحها. لكن المصادر التاريخية القديمة عجزت عن التمييز بين موقع قاعدة الإسكندر العسكرية التي كان يحتفظ فيها بالأسرة الملكية الفارسية (مع كنوزه الخاصة) وبين المكان المعتاد المخصص لأمتعة الجيش. وفي ذلك الوقت كانت أمتعة الجنود المقدونيين الممتلئة بالغنائم التي نهبوها في غزواتهم من آسيا الصغرى وحتى مصر، تستحق الاهتمام أكثر من أي شيء آخر. وإذا ما تذكرنا الأيام السابقة التي قضاها الجيش في انتظار المعركة فمن الأرجح أنهم كانوا في أشد الحاجة إلى الطعام أيضًا. وعلى أية حال إذا كانت الملكة الأم قد رفضت أن يطلق سراحها وسط المعركة بواسطة فرسان منهكين زائغي البصر فقد كان قرارها هذا يدل على حكمة أكثر مما يدل على مشاعر ودٍّ تجاه خاطفها.

وفيما كان الجناح الأيمن يقاتل في مواجهة ضغط متزايد عليه والجناح الأيسر عاجز بقيادة بارمينيو على الصمود والمقاومة، وجد الإسكندر فرصته الكبرى. كان الفرس قد هاجموا بارمينيو بجموعهم الكبيرة في أرض مفتوحة، وكان فرسان الجناح الشرقي إلى يسار الفرس قد تدفقوا إلى يمين الجيش المقدوني بعد أن ظهرت بوادر كسب المعركة، فانفتحت ثغرة بين وسط ويسار جيش داريوس، ولم يكن الإسكندر أو قواته من الفرسان حتى تلك اللحظة قد ظهروا في المعركة، وهنا تحرك الإسكندر ليشن هجومًا مباشرًا بفرسانه المدججين بالسلاح من جناحه الأيمن ويتجه صوب داريوس وتبعه الفالانكس.

وربما شعر الملك العظيم وهو في وسط جيشه — وقد أعماه الغبار وأصمت الضوضاء أذنيه — أن خطته قد نجحت، وهو ما حدث بالفعل. فقد كانت صفوف المقدونيين محاصرة من الجانبين ومخترقة من اليسار لكنه فجأة وجد حرسه الخاص قد بدأ ينهار من جراء هجوم غير متوقع. وكان يمكن لداريوس أن يستمر في القتال لو تمكن من التعرف على عدوه لكنه وجد نفسه محاطًا بمجموعة من الجنود يتساقطون من حوله أو يفرون هاربين، ثم أدرك أن الإسكندر بدأ يخترق طريقه ويتجه مباشرة إليه حين تناهت إلى أسماعه أصوات احتكاك سنابك الخيل، وصليل السيوف والصيحات التي انبعثت من عن يساره.

من الصعب تصديق ما قاله آريان عن أن داريوس كان أول فارس فر من المعركة. أما القصة الأخرى التي رواها كيرتيوس Curtius — وهي الأرجح — فهي أن سائق عجلة داريوس الحربية أصابته حربة مما أفقد بقية الجند شجاعتهم لظنهم أن الملك العظيم قد مات، وكانت أذنا داريوس لاتسمعان إلا الصراخ، وكان حراسه الأشداء الأقوياء يتهاوون أمامه في بركة من الدماء، وفي هذه اللحظة واجه داريوس في جوجاميلا — كما حدث سابقًا في إيسوس — عدة خيارات مختلفة، إما أن يموت أو يستسلم أو يتقهقر ليحافظ على الإمبراطورية الأكامينيدية. وربما يكون الرعب قد دب في قلبه — لكن التاريخ كان سيكون أكثر شفقة به لو كان قد ثبت في موقعه مهما حدث، ولكن داريوس قرر أن يهرب.

وليس من المعروف ما إذا كان داريوس قد تقابل وجهًا لوجه مع الإسكندر في جوجاميلا أم لا، والأرجح أن الإسكندر هو الذي رأى الملك العظيم في عجلته

الحربية الجميلة محاطًا بحراسه. ومن المحتمل أيضًا أن يكون داريوس قد رأى الإسكندر — وسط غبار المعركة — كمجرد واحد من الفرسان يقاتل ويصارع في جميع الاتجاهات وهو يشق طريقه إليه. ومع ذلك فحين استدار داريوس ليهرب طارده الإسكندر لبضعة أميال قبل أن يقال له إن المعركة الأهم ما زالت تدور رحاها وراءه.

بعد انهيار الجزء الأوسط من خطوط الجيش الفارسي، اكتشف بيزوس الذي كان يقود الجناح الأيسر من جيش الفرس، أنه يجب أن يكف عن القتال، فأمر الفرسان من الباكتريان والأراكوازيان والسيثيان بتخفيف الضغط على جناح الجيش المقدوني وتراجعوا، وترامت هذه الأنباء إلى الجناح الأيمن لجيش الفرس، الذي كان منتصرًا إلى حد ما، فبدأت القوات تكف عن القتال مخففة الضغط على بارمينيو. ويقال إن الفرسان الثيساليان بدءوا هجومًا مضادًا كبيرًا أسفر عن هروب الأعداء من هذا الجانب.

حين عاد الإسكندر إلى ساحة القتال بعد مطاردته لداريوس، قابله تشكيل منظم من قوات الفرس والبارثيان والهنود أثناء تراجعهم، وفوجئ الإسكندر بهم واضطر إلى الاشتباك معهم في أصعب قتال له في ذلك اليوم، فقد قتل حوالي ستين من رفقائه ليس من خلال تكتيك حربي من قبل الفرس، ولكن من منطلق إحساسهم باليأس. يقول آريان: «إنهم لم يعتمدوا على القتال بالرماح القصيرة أو حسن استخدام الخيل كما هو معهود في حرب الفرسان.» وهي مقولة تلقي الضوء على نوعية القتال الذي نشب في هذه المعركة، فقد كان شاغلهم الأول هو بقاؤهم على قيد الحياة، فقد كانت مهارة الإسكندر في القتال هي ما جعلهم يحومون حول جيشه وهم يقاتلون ولا يخترقونه في العمق.

وكعادة المؤرخين اليونانيين في تقديم تقديرات مثيرة للريبة لخسائر المعارك، ذكروا أن عدد القتلى من الفرس بلغ ٣٠٠٠٠٠ في مقابل ١٠٠ من المقدونيين. لكن واقع الأمر أن فلول جيش الفرس لم تجد أية صعوبة في التخلص من مطارديها المقدونيين منهكي القوى، الذين كان حريًّا بهم ألا يتتبعوهم حتى لا يصبحوا ضحايا لرماحهم، ومن المؤكد أن المجندين المشاة من المواطنين الذين اختارهم داريوس لتعظيم عدد جيشه قد تحملوا الكثير وأنهم أثناء محاولتهم الفرار عبر السهل المفتوح وقع منهم المئات فريسة

للفالانكس المنتشين بدماء النصر. لكنه على الجانب الآخر نجد أن معظم الآريان، والأراكوزيان، والباكتريان والسيثيان الذين نجوا من المعركة عادوا إلى بيوتهم حين بدأ الجيش يفقد تماسكه، وكان يمكن للمقدونيين أن يستمروا في اقتفاء أثرهم فترة يقتلون أكبر عدد منهم، لكنهم اكتفوا باستسلام الآلاف من فلاحي الإمبراطورية الذين كفوا عن المقاومة.

بعد هروب الإسكندر الصعب من خيّالة أعدائه، واصل اقتفاء أثر داريوس خلال الليل، فوصل إلى مدينة أربيل (التي أحيانًا ما تسمى المعركة باسمها) في اليوم التالي، لكن داريوس كان قد غادرها بعد أن توقف فيها فترة. وللمرة الثانية يكتشف الإسكندر مركبة داريوس الحربية بعد أن تركها ليتجه شمالًا وبرفقته بيزوس وسلاح الفرسان من الباكتريان بالإضافة إلى بضعة آلاف من المشاة الإيرانيين والفرس، الذين كانوا قد تقهقروا بانتظام. ومن سوء الحظ أن الإسكندر لم يتمكن من قتل أو أسر الملك العظيم، لكن عزاءه كان القضاء على أكبر جيش للإمبراطورية الفارسية، لتصبح الإمبراطورية بعد ذلك ملكًا خالصًا له.

اتجه داريوس شمالًا ترافقه قوات بيزوس من الباكتريان ورجاله المخلصون من اليونانيين، في حين ذاب بقية الجيش فور زوال سلطته. وفيما عدا هذه القوات بقيادة بيزوس فمن المؤكد أن سلسلة طويلة من المقاتلين اتجهت إلى الطرق المؤدية إلى أفغانستان وسوجديا والهند. ولأن داريوس كان في طريقه إلى الهروب فقد اتجه صوب الشمال حيث لا جدوى من متابعة عدوه له بعد أن أصبحت بقية الإمبراطورية ملكًا له.

تقدم الإسكندر جنوبًا إلى بابل، المركز الإداري والتجاري للإمبراطورية الفارسية، ومكث فيها ما يزيد على شهر. ومن شدة عجبهم مما رأوا من شأن هذه البلاد ظن الجنود المقدونيون أنهم إما في الجنة أو في الجحيم. وقد كتب كيرتيوس مصدومًا يقول: «كانت النساء يحضرن حفلات العشاء، وكن في البداية يرتدين ملابس محتشمة، ثم لا يلبثن أن يبدأن في خلع الجزء الأعلى من ملابسهن ليفقدن احترامهن.» اتجه الجيش بعد ذلك إلى سوسة التي لم تقل عجبًا في أعينهم عن بابل. كان ثراء بلاد الرافدين يفوق خيال الجندي المقدوني الذي نشأ على ما كان الإغريق يعتقدون أنه عيش رغد، لكنه كان

بالنسبة إلى الفرس نوعًا من الحياة المتقشفة. وكان من الواضح أن طراز المباني ونوعية الطعام وأنواع الأقمشة والنساء تثير دهشة جيش الإسكندر الذي درج على الحياة العسكرية الخشنة.

وفي أوائل عام ٣٣٠ ق.م سار الإسكندر بجيش من سوسة إلى برسيبوليس عاصمة الفرس التي تقع في جبال زاجروس النائية (جنوب غرب إيران حاليًّا). وفي طريقه قابله الأهالي الذين يقطنون الجبال ويطلق عليهم الأوكسيانز، وطالبوه بدفع رسوم للسماح له بالمرور عبر ممراتها، لكن الإسكندر سرعان ما اجتاح قراهم في السفوح ونجح مع قوات قليلة من المشاة في أن يدور حول ممراتهم الجبلية. ثم فرض على من تبقى من أهلها ضريبة سنوية تقدر بثلاثين ألفًا من الأغنام، بالإضافة إلى حيوانات أخرى. حين وصل الإسكندر إلى أرض الفرس حدثت مواجهة مع أريوبارزانس Ariobarzanes حاكم الإقليم الذي قاوم الغزو بشجاعة. كانت أيام تحرير الشعوب من قهر الفرس قد انتهت، وصار على الإسكندر أن يواجه مقاومة شعبية من الأهالي، فقسم قواته ودمر مقاومة الفرس بهجوم ثلاثي نافذ.

وحين وصل الإسكندر ومعه جيشه المنهك إلى برسيبوليس في نهاية شهر يناير/كانون الثاني أو أوائل فبراير/شباط عام ٣٣٠ ق.م أصابتهم جميعًا مشاعر ذهول وجزع؛ كانت المدينة رائعة، تقع على هضبة تحوطها الجبال الشاهقة وتضم مجموعة من القصور الفخمة ذات الزخارف الجميلة والمباني الضخمة ولكنها لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم. فقد صب الفرس كل ما يملكونه من مهارة فائقة في الطرز المعمارية على هذه المنطقة المتجمدة في حضن زاجروس حيث لا تجارة أو ضجيج أو تحركات بشرية. وكان الإسكندر يعتقد أنه بعد أن قاد جيشه إلى برسيبوليس مقر الإمبراطورية فإنه يمكنه أن يقضي الشتاء في راحة ورفاهية. لكن المدينة كانت قليلة السكان ومن فيها يمثلون فقط خدم الملك العظيم. وفيما عدا ذلك كانت مدينة أشباح تمتلئ فقط برموز ضخمة تمثل العظمة الفارسية. لقد أخطأ الإسكندر وقاد رجاله إلى مأزق وإلى طريق مغلق.

وبخلاف ما جرى في بابل وسوسة، أعطى الإسكندر الحرية لرجاله ليسلبوا وينهبوا ما شاءوا من المدينة، فيما عدا القصور. فانطلقوا ينهبون الضياع الخالية إلا من الخدم الذين كانوا يعيشون فيها طوال العام. وقد ظل الجيش

المقدوني في برسيبوليس مدة أربعة أشهر، فقد أغلقت ثلوج الشتاء ممرات زاجروس ولم يستطيعوا المغادرة.

أما الإسكندر نفسه فقد زار مدينة باسارجادي، وهي العاصمة الأصلية لقورش العظيم على بعد أربعين ميلًا من برسيبوليس وتقع على ارتفاع أعلى منها، بالإضافة إلى أنها أشد برودة، وكانت مهجورة أيضًا من السكان في الشتاء. وأمام قبر قورش قدم الإسكندر له كل التعظيم والاحترام. وفي وقت آخر اتجه بفرقة من المشاة الخفيفة إلى الشمال، بزعم قمع القبائل الجبلية، وإن كان السبب الأصلي هو محاولة استكشاف مخرج لهم من زاجروس. وقد روي أن قواته وصلت إلى ممر أغلقته الثلوج فترجل الإسكندر عن حصانه، وأمسك بفأس يزيح به هذا السد الجليدي. وفي هذه الحملة صادف بعض رجاله أناسًا يرتدون الفراء من القاطنين في كهوف البلاد فقاتلوهم وإن كان هؤلاء قد فروا هاربين فور رؤيتهم للمقدونيين. وعاد الإسكندر متثاقلًا متجهما إلى برسيبوليس بعد هذا النصر الذي هز كبرياءه أكثر مما أضاف إليها.

من الأحداث التي مرت في حياة الإسكندر وأثارت جدل المؤرخين منذ الأزمنة القديمة وحتى الآن، أسباب حرقه وتدميره لمدينة برسيبوليس قبل مغادرته لها في ربيع عام ٣٣٠ ق.م، والسبب في هذا بسيط، وهو أن الإسكندر ومعه كل جنوده قد كرهوا تلك المدينة كراهية شديدة، ففي خلال أشهر الشتاء، بدلًا من الاستمتاع بغنائم النصر، كانوا قد أجبروا على حياة بائسة وسط أشباح من الحجارة والرخام. وحين كانت برسيبوليس تحت حكم الأكمينديين كان سيل الإمدادات المختلفة لا ينقطع عنها، لكن الإسكندر كان قد أطاح بهذه البنية الأساسية ولم يتبق للمقدونيين سوى ثلاثين ألفًا من الأغنام استولوا عليها من الأوكسيانيين. وحين كان الفرس ينعمون بالدفء والتجارة والغذاء الطيب والعلاقات الإنسانية في الأراضي التي تبقت لهم من الإمبراطورية، كان جيش المقدونيين الغزاة كقطيع من الريفيين الأغبياء يقضون الشتاء في عاصمة هي ليست بعاصمة.

وأثناء محاولات الإسكندر المجدية أحيانًا لاكتشاف ممرات تؤدي به إلى خارج المدينة، من المؤكد أنه تجول في أراضي برسيبوليس وفي كل مكان كانت تطالعه دلائل عظمة الفرس بدءًا من السلسلة الطويلة من الشعوب المندحرة التي كانت تقدم له الجزية ونهاية بصور ملوك الفرس على أفاريز المباني.

وحين كان الظلام يحل مبكرًا، كانت أشباح قورش وداريوس الأول وزيركسس تتراءى له في ضوء المشاعل تسخر منه من وراء قبورها. فقد كان الإغريق سابقًا ينظرون إلى الفرس نظرتهم إلى شعب لين العريكة معتاد على الترف المفرط، لكن الإسكندر حين وصل إلى قلب الأراضي الفارسية اكتشف كم هي قاسية باردة.

في أواخر شهر مايو/أيار تسلم الإسكندر تقارير تفيد بأنه قد تم تجميع مؤن كافية لتحرك القوات، وأن ممرات زاجروس قد ذابت ثلوجها وأصبح من الممكن المرور خلالها. وبعد ليلة طويلة حفلت بالشراب في برسيبوليس، أمسك الإسكندر بأحد المشاعل، بتشجيع من الآخرين، وقذف به قصر الأكمينيد.

حين رأت القوات المقدونية النيران تشتعل في القصر هرعوا إليه بدلاء مملوءة بالمياه لإطفائها، لكنهم حين رأوا الإسكندر نفسه يواصل إضرام النيران، بدأ الجيش كله يشترك معه بسعادة. وعندما بدأ سقف القصر المصنوع من خشب الأرز يتهاوى، شاهد المقدونيون، وسط الانفجار واللهب والدخان والنيران، أعظم مشهد لتهاوي أعظم مبنى في التاريخ القديم، لقد كان عملًا تخريبيًا هائلًا، وعلى الفور قال كاليستنيين Callisthenes — مؤرخ البلاط في عهد الإسكندر — وهو ابن شقيق أرسطو، إن الإسكندر قد انتقم لتدمير زيركسس لأثينا عام ٤٨٠ ق.م، لكن حقيقة الأمر أن الإسكندر ورجاله كانوا يعبرون عن مشاعر السخط والإحباط التي تملكتهم وهم محتجزون ما يزيد عن أربعة أشهر بائسة.

في الوقت الذي كان فيه الإسكندر حبيسًا في برسيبوليس كان داريوس يقضي فترة شتاء مريحة في إكباتانا Ecbatana (همدان الآن) في انتظار ذوبان الجليد على الجبال الواقعة شمال ميديا. وفي أوائل شهر يونيو/حزيران بدأ السباق من جديد وفر داريوس إلى الشرق ومعه ثلاثة آلاف من الباكتريان بقيادة بيزوس، وستة آلاف من المشاة الإغريق والفرس. وقد وصل الإسكندر إلى إكباتانا بعد أن قطع مسافة ٢٦٠ ميلًا في أحد عشر يومًا، وهناك انضمت إليه عناصر من الجيش كان قد تركها في سوسة. وفي إكباتانا نمى إلى علمه أن أنيتباتر — الوصي على العرش — قد أخمد تمردًا في اليونان قاده الإسبرطيون، فقام الإسكندر بفض التشكيلات المتحالفة داخل جيشه، ومن ضمنها سلاح الفرسان الثيسليان بقيادة بارمينيو، وكافأ كل رجل من الجيش مبديًا استعداده

لتأمين عودتهم إلى ديارهم، لكنه في نفس الوقت أعلن عن استعداده لمكافأة الرجال الذين يعاودون الالتحاق بالجيش على شريطة أن يكون الولاء للإسكندر وليس للدولة. وبذلك انتهت الحملة الهيلينية الشاملة أو ما كانت تسمى بهذا دون وجه حق. ومنذ ذلك الوقت أصبحت كل فروض الطاعة والولاء تقدم للإسكندر فقط.

تمكن الإسكندر أخيرًا على رأس ستين فارسًا من المحاربين المجهدين من اللحاق بداريوس بعد مطاردته جنوب بحر قزوين، وهناك وجد الملك العظيم مقتولًا في عربة وقد قيدت يداه بسلاسل من ذهب بعد طعنه بالرماح وبجواره عبدان قتيلان وكلب صغير حي. وكانت هذه صدمة مروعة للإسكندر الذي كان يسعى إلى الشرعية كما يسعى إلى السلطة. أما أن يرث الإمبراطورية من ملك بائس مقتول فهذا أمر مهين غير مشرف. وكان هذا سبب مقتل الملك العظيم على يدى قواده السابقين المخلصين له بعد أن تلاشت قوته واعتبر مهزومًا، كما أن نبلاء باكتريا والشرق رفضوا استمرار تبعيتهم لداريوس. أما إذا رغب الإسكندر بعد ذلك في الاستمرار في حملته فليكن ذلك ضدهم وليس ضد الملك العظيم سيئ الحظ.

بعد أن وجد داريوس مقتولًا سرت إشاعة داخل الجيش المقدوني أن الحملة قد انتهت، وحين استيقظ الإسكندر صباح أحد الأيام وجد قواته قد حزموا أمتعتهم واشتعل حماسهم للعودة إلى بلادهم وليس لاستمرار القتال. وكانت أزمة حادة يواجهها الإسكندر فخطب في قواته بأن مهمتهم لم تنته بعد، وأن كل ما حققوه سوف يكون دون جدوى إذا ما انسحبوا عائدين. ووافق الجيش على أن يتجه شرقًا. وحتى يعوض الإسكندر الجند عن غيبتهم الطويلة عن عائلاتهم أباح لهم الزواج من نساء البلاد التي يغزونها. ومن قبل كان الجيش المقدوني يسير عادة بدون أعداد كبيرة من غير المحاربين خلفه، مما كان أحد العناصر الفعالة في سرعته ونجاحه. لكنه بعد عرض الإسكندر استغل عشرة آلاف من جنوده الفرصة وفي غضون عام تسبب عدد كبير من الأطفال في زيادة رقعة الجيش.

لم يكن لهذه الرفاهية نفعًا في نظر الإسكندر، فبعد مسيرة قليلة للجيش أمر بتدمير كل المركبات وضرب المثل أمامهم بحرق متاعه هو. ورغم حرصه على توفير الراحة لقواته لكن التزامه الأول كان الاحتفاظ بجيش خفيف قادر

على الحركة، وحين خطب في جيشه يشجعه على الاستمرار في مسيرته، ادعى أن الحرب سوف تنتهي بعد أربعة أيام فقط، وربما كان مؤمنًا بذلك فعلًا ولكن ما لم يفصح عنه لقواته هو أنه كان يقودهم إلى نهاية مجهولة بالنسبة للإغريق، وإلى أرض أكثر قسوة من أي بقعة أخرى، إلى منطقة يطلق عليها الآن أفغانستان.

في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية كان ثلاثة من قاتلي داريوس وهم بيزوس حاكم باكتريا، وساتيبارزانيس Satibarzanes حاكم آريا، وبارسايئتس Barsaentes حاكم أراكوزيا قد عادوا إلى عاصمتهم في أفغانستان الحديثة انتظارًا للجيش المغير في حالة حضوره. وسرعان ما تلقى الإسكندر معلومات تفيد بأن بيزوس سليل الأكامينيد الذي كان يتولى قيادة ميسرة الجيش الفارسي في جوجاميلا قد رفع إكليله إلى مقدمة رأسه دلالة على تنصيبه ملكًا، كما أنه أطلق على نفسه الاسم الملكي أرتاكزيركسس Artaxerexs. وكان من الواضح أن الإسكندر قد رحب بهذا التطور الجديد وأنه بذل جهده لإشاعة هذه الوقاحة التي ارتكبها بيزوس في جيشه. فقد أصبح المقدونيون الآن لا يقاتلون بقايا إمبراطورية بل خصمًا يدعي أنه ملك عظيم.

أما بيزوس فقد كان يعتمد من جانبه على تحالف حكام الأقاليم — التي تضم أفغانستان الآن والسوجديان والسيثيان شمال نهر أوكسس وربما أيضًا الولايات في شرق الهند — للانضمام إليه في مقاومة الغزاة. كما اعتمد أكثر من ذلك على أن المقدونيين سوف يحاربون في مناطق مجهولة لديهم جغرافيًّا، وإذا كانت أي جيوش في التاريخ قد غالت في توسعاتها، فبالتأكيد سوف يكون جيش الإسكندر واحدًا منها، ومن ثم سوف يكون الغزاة اليونانيون منهكي القوى أثناء القتال.

أما الإسكندر فقد كان يمتلك معلومات كافية عن الطريق الذي سوف يسلكه الجيش في الغرب، من خلال خبرات سابقة لليونانيين، وأيضًا بدعم من شبكة الطرق الملكية التي أنشأها الفرس. أما في الشرق فسوف يسلك اليونانيون طريقًا إلى المجهول. ولأن بيزوس فضل الاعتماد على عامل الزمن أكثر من اعتماده على عامل المكان فقد توقع أن المقدونيين سوف يهلكون في المناطق الصحراوية، أو أثناء عبورهم سلسلة الجبال الشاهقة التي بالقطع

سوف تُعجز الجيش إذا ما فكر في اجتيازها في الوقت الخاطئ من السنة. ومن المفارقة أن بيزوس حين نصب نفسه ملكًا أعطى المبرر المنطقي للإسكندر لزحفه إليه، كما أنه أساء تقدير عدوه. ومن العوامل التي حيرت الباحثين المعاصرين أن الملك الشاب كان خبيرًا بالقواعد اللوجستية والاستخباراتية إلى جانب شجاعته في المعارك. فلم يتدفق المقدونيون فورًا على أفغانستان، بل تقدموا بانتظام وهم يؤمنون الإمدادات في كل منطقة يتوقفون فيها، معولين على المعلومات المستقاة من الأهالي في طريقهم. ففيما عدا الاشتباكات في المعارك التي كان الإسكندر خلالها يتسم بالاندفاع والتهور غافلًا تمامًا عن سلامته الشخصية، كان الملك الشاب حريصًا في تخطيطه للغزو إلى درجة التدقيق في كل صغيرة وكبيرة.

في صيف عام ٣٣٠ ق.م كان الإسكندر الأكبر قد نال قسطًا من الراحة وأعاد ترتيب جيشه جنوب شرق بحر قزوين، وأقيمت المباريات الرياضية بكثرة في تلك الفترة، كما جاءت ملكة الأمازون من الشرق على أمل أن تنجب طفلًا من الفاتح العظيم. وقد شك المؤرخون لقرون طويلة في صحة هذه الرواية، لكن علماء الآثار المحدثين اكتشفوا نقوشًا بها دلالات كافية على وجود ثقافة المرأة المحاربة في السهول الجنوبية من أوراسيا، وتوازنًا مع ما قيل فإنه يجب تقبل ما رُوي قديمًا عن محاربات الأمازون، رغم أنه من المحتمل أن قبائل السارماثيان الأشداء — وهم من أقارب السيثيان — استخدموهن في أغراض دبلوماسية. أما بالنسبة لما ورد عن فكرة إنجاب الإسكندر لطفل فقد قيل إن ذلك استغرق ثلاثة عشر يومًا وهي مدة تدل على أن حماسه لهذه الفكرة لم يكن على قدر الصعوبات التي لقيها منها.

حين استولى المقدونيون على آريا — وهي منطقة تقع قرب هرات — قام الحاكم ساتيبارزانس بتسليم نفسه ليعاد تنصيبه من جديد في نفس الموقع. فقد كان الإسكندر يرحب دائمًا بمظاهر الخضوع والإخلاص من جانب النبلاء الفرس، حيث كان يعتمد على خبرتهم في حسن تسييرهم لأمور الدولة. ورغم أن الجيش المقدوني في ذلك الوقت كان أشبه بمقعد حكم متنقل فإنه لم يكن يمتلك المهارة أو المعرفة بالظروف المحلية ليحل محل البيروقراطية الفارسية. وقد ترك الإسكندر أربعين من الفرسان من حملة الرماح بقيادة أحد الضباط ويدعى أناكسيبوس Anaxippus ليرابطوا في إقليم أرتاكونا عاصمة مقاطعة الآريان.

وفي طريقهم إلى باكتريا نمى إلى علم المقدونيين أن ساتيبارزانس قام بثورة قتل فيها أناكسيبوس والفرسان الذين معه. فأخذ الإسكندر وحدات من نخبة الجيش وعاد مسرعًا إلى أرتاكونا بعد أن قطع سبعين ميلًا في يومين. وذعر ساتيبارزانس من عودته السريعة فهرب متجهًا إلى باكتريا ومعه من استطاع جمعهم من الفرسان. أما بقية جيش الإسكندر بقيادة كراتيروس Craterus فقد حاصر ثلاثين ألفًا من الآريان الذين فروا يحتمون بأرض صخرية بارزة ذات أجراف شاهقة على الجانب الغربي وأقل انحدارًا في شرقها. وكانت منطقة تملؤها الغابات ويمتد الربيع فيها طوال العام. وفي البداية استعصت هذه القلعة الطبيعية على المقدونيين لكن الإسكندر كان — كما قال عنه كيرتيوس: «يمتلك عقلية قادرة دومًا على حل أية معضلة. وبينما هو في هذا المأزق الذي وجد نفسه فيه، إذ بأمر حدث مصادفة يلهمه بخطة عبقرية حلت له تلك المشكلة.» كان جنوده يقطعون الأشجار ثم يكومونها في سفح الجرف وخلال شهر أغسطس/آب الحار أحالتها ريح جنوبية عاصفة إلى مادة سريعة الالتهاب. وعند هذه النقطة تختلف المصادر القديمة في تفسير ما حدث فالبعض يقول إن هذه الأشجار اشتعلت بمحض الصدفة والآخرون يقولون إن الإسكندر جمع هذه الأشجار وأشعل فيها النيران وكانت النتيجة اشتعال قمة الجبل بأكمله وهلاك كل المدافعين عنه.

وإذا قرأنا ما بين السطور نتساءل هل هلك الآريانيون بأكملهم في الحرائق التي هبت، أم أن الإسكندر أعلن ببساطة عن انتصاره وقفل عائدًا في طريقه. فقد كان من الصعب عليه أن يعترف بأن صخرة هزمته، وفي الوقت نفسه يظل في مكانه وسط جموع من الهاربين المذعورين حين كانت أمامه أولويات أكثر أهمية. وقد تكون النار المشتعلة قد أتت على كل المدافعين عن الصخرة، ولكن لا يعني هذا أنها حين خمدت تمامًا لم يتبق منهم أحياء زحفوا إلى الجرف ليجدوا أن المقدونيين قد غادروا المكان فتنفسوا الصعداء.

وحتى الآن لم يستطع الأثريون تحديد مكان أرتاكونا ليظل موقع هذه الصخرة العظيمة محل تساؤلات. يقول دونالد إينجلز إنها صخرة «كالاتي ناديري» أو جبل طارق الفارسي التي كانت قارب نجاة للسكان المحليين في مواجهة الغزو الأجنبي، وفي القرون التالية، كانت الموقع الوحيد الذي قاوم

حصار تيمورلنك، وإذا صحت الرواية السابقة، فيمكن إضافة ميزة جديدة لها، وهي أنها القلعة الوحيدة التي صمدت أمام هجوم الإسكندر.

بعد إخماده ثورة الآريان قام الإسكندر بتغيير خططه، فقد كان في نيته الاتجاه صوب باكتريا لكنه بعد اضطراره إلى العودة ليتعامل مع الآريان، قرر أن يستمر جنوبًا. فقد نمى إلى علمه أن إقليم أراكوزيا (جنوب أفغانستان) يعاني بعض الاضطرابات والقلاقل، وربما كانت أمامه مؤشرات أيضًا أنه في باكتريا قد يشكل الطعام عائقًا أمامه، والجيش الذي كان بحاجة إلى أن يعيش على ناتج الأرض الزراعية نادرًا ما يستطيع عبور نفس المكان مرتين متعاقبتين. كما أن فرسان بيزوس كانوا قد خلفوا وراءهم خلال فترة قتالهم أراض محترقة. وكالعادة كان الإسكندر يعتبر عدوه الأكبر ليس جيوش الأعداء ولكن الجوع والعطش وعناصر الطبيعة، خاصة وهو يزحف نحو أراض مجهولة لديه.

وفي طريقه نحو الجنوب الشرقي توقف الإسكندر ليؤسس مدينة محصنة أطلق عليها الإسكندرية — آريا وربما تكون هي هرات حاليًّا. وبعد مسيرة مائتي ميل جنوبًا استراح الجيش في منطقة فرادي (فرح حاليًّا) عاصمة درانجيانا. وحين غادرها الإسكندر كان قد غير اسمها إلى بروفيسيا وهو الترجمة الإغريقية لكلمة «النبوءة» حيث إنه اكتشف في هذه المدينة مؤامرة لاغتياله.

بدأت الدراما بطريقة غير مؤذية في بادئ الأمر حين اقترب أحد الخدم من فيلوتاس Philotas، قائد «الفرسان الرفقاء» وأخبره أن صديقه، وهو من حرس الإسكندر الخاص منغمس في مؤامرة لقتل الملك، لكن فيلوتاس رغم التقائه بالملك عدة مرات بعد ذلك لم يبلغه بأمر هذه المؤامرة قط، وحين أعاد الخادم هذه القصة على الإسكندر تعامل الملك فورًا مع هذه المعلومات وقبض على المتآمرين، واعتذر فيلوتاس بشدة لأنه لم يأخذ الموضوع مأخذ الجد ويخبر الملك، فسامحه الإسكندر. وفي نفس الليلة عقد الإسكندر اجتماعًا مع قواده المقربين الذين أدانوا فيلوتاس بشدة. ولكن لم يشر أحد من المتآمرين إلى أنه كان ضالعًا في المؤامرة، بالإضافة إلى أن صمت فيلوتاس مدة يومين، كما قال هو بنفسه، يشير إلى براءته أكثر من إدانته. ورغم أنه لسوء حظه لم يأخذ فكرة المؤامرة مأخذ الجد فإنه أيضًا لم يتخذ أي إجراء ضد المبلغ ولو كان مشتركًا في المؤامرة لكان قد تصرف بطريقة أخرى.

وقد حير صمت فيلوتاس الغامض مدة يومين، ومدى صحة اشتراكه في المؤامرة؛ كل مؤرخ تناول تاريخ الإسكندر منذ ذلك الوقت، وكانت هناك حقيقة غائبة عن الأذهان وهي أن شقيق فيلوتاس الوحيد، نيكانورNicanor، قائد فرقة الحرس الخاصة قد توفي منذ أسابيع قليلة في آريا نتيجة مرض أصابه، في حين أن أخًا ثالثًا له هو هكتور Hector، كان قد توفي في حادث انقلاب قارب في النيل. وكان الإسكندر على عجلة من أمره في آريا، فلم يحضر جنازته ولكنه ترك فيلوتاس ومعه قواته الخاصة وقوامها ٢٦٠٠ رجل ليتمموا واجب العزاء. وقد يبدو هذا العزاء لائقًا (ومن جانبه قال كيرتيوس: «إن الإسكندر كان أكثر الناس حزنًا عليه.») ولكن النوايا الحقيقية قد تظهر أحيانًا في أحاديث شخصية تختفي خلف التفاصيل الكبيرة، حيث تكون هزة كتف أو ابتسامة متكلفة أو حتى حركة تثاؤب لها أهميتها الكبرى ومغزاها الحقيقي. فعقب وفاة شقيقه، كان من الممكن أن يكون فيلوتاس متذبذبًا في موقفه من الملك. فإذا سمع أن بعض الشخصيات الثانوية يدبرون مؤامرة لقتل الملك، كان يصدق عن اقتناع أنها إشاعة سخيفة؛ ومن ناحية أخرى، عندما يكون في مزاج سيئ، كان جزء صغير منه يتمنى لو أنها حقيقية.

وقد تولى أصدقاء الملك هيفاستيون Hephaestion، وكراتيروس Crate-rus، وبيرديكاس Perdiccas، وكويناس Coenus مهمة تعذيب فيلوتاس الذي ما إن رأى آلات التعذيب حتى صرخ قائلًا: «كراتيروس أخبرني بما تريد أن أقوله.» ولكن كراتيروس ظن أنه يسخر منه فبدأ في تعذيبه حتى اعترف ليس فقط باشتراكه في محاولة اغتيال الملك وإنما بكل الذنوب التي جالت بذهنه وقتها، فقط حتى يتوقفوا عن تعذيبه. وبعد ذلك أذيع اعترافه على الجيش ثم قتل بالحراب.

كان الشيء الأكثر حساسية في هذه المؤامرة المزعومة أن فيلوتاس ونيكانور وهكتور كانوا أبناء بارمينيو القائد الثاني في جيش الإسكندر وجيش والده من قبل. وكان فيلوتاس، بصفته الابن الوحيد لبارمينيو الذي ظل على قيد الحياة، قد أصبح الحلقة الوحيدة التي تربط عائلته بمنصب القيادة في جيش الإسكندر، وآخر من خدم من قواد فيليب الثاني في جيشه. لكن داخل الجيش ظهرت فجوة واضحة بين قدامى المقدونيين، ممن خدم تحت إمرة الملك فيليب، وبين الجيل الجديد الذي يدين بالولاء للإسكندر، وتجلت هذه الفجوة أيضًا

بين بعض القوات التي احتفظت بتقاليدها وملابسها، وبين الإسكندر وحاشيته الذين بدءوا يتبنون بعض مظاهر الترف التي عرفت عن الفرس بالإضافة إلى ملابسهم وعاداتهم الشرقية، وكان معظم التذمر قائمًا على أساس أن الهدف من هذه الحملة هو الانتصار على الفرس لا التشبه بهم. كما كان الكثيرون أيضًا يتوقون إلى وضع نهاية لهذه الحملات، فمنذ انتصاراتهم في بلاد الرافدين لم يواجهوا سوى تقلص فرص عودتهم إلى وطنهم، كما كانوا مهددين بالمخاطر التي يمكنها أن تنسف كل انتصاراتهم ومكاسبهم.

بعد مقتل فيلوتاس بقيت أمام الإسكندر مهمة واحدة ينهيها: قام مجموعة من الرجال المخلصين له بالتنكر في ملابس المواطنين المحليين، وامتطوا جمالًا سريعة العدو إلى إكباتانا حيث كان الإسكندر قد ترك بارمينيو حاكمًا لهذه الولاية، وقطعوا الطريق مباشرة من اليونان إلى أفغانستان. وكان معهم خطابان للقائد العجوز أحدهما من ابنه والثاني من الإسكندر، واستقبلهم بارمينو بابتهاج وسألهم عن صحة الملك، ووقف السفاحون أمامه وهو يقرأ خطاب الإسكندر وسمعوه يعلق على ما جاء به قائلًا: «إن الملك يعد حملة ضد أراكوزي، يا له من رجل ذو طاقة هائلة، إنه نادرًا ما يرتاح.» وحين بدأ يقرأ خطاب فيلوتاس عاجله رجال الإسكندر بطعنات السيوف حتى مات. لكن القتلة عانوا كثيرًا من قوات القائد الغاضبة التي سرعان ما حاصرت القصر، لكنها بعد ذلك استسلمت لهم شريطة إعطائهم جسد بارمينيو، في حين هرع القتلة برأسه إلى أفغانستان، وحين سمع أنتيباتير في مقدونيا — وهو آخر جنرالات فيليب الثاني — بالجريمة التي ارتكبت لم يملك سوى أن يقول: «لترحم السماء بارمينيو إذا كان مذنبًا، أما إذا كان بريئًا، فلترحمنا السماء جميعًا.»

ومن بروفيسيا تقدم الإسكندر إلى الوادي الأسفل لنهر هلمند حيث تقابل هناك مع من أُطْلِق عليهم «المحسنون» (Euergetae باللغة الإغريقية) والذين كانوا قد أعطوا مؤنًا وطعامًا إلى جيش قورش العظيم بعد وصوله من الصحراء منذ قرنين ماضيين. وحسبما يذكر آريان أن الإسكندر اكتشف أن هؤلاء الأشخاص «يتمتعون بنظام حكم يختلف تمامًا عن بقية البرابرة الآخرين الذين يعيشون في هذا الجزء من العالم، فهم يطبقون العدالة مثلما يطبقها أفضل الإغريق». ولأن الإسكندر كان يوقر سلفه العظيم، فقد ترك المحسنين

يمارسون حكمهم بحرية، بل وعرض عليهم أية أراض أخرى مجاورة لهم يريدونها ومع ذلك «فإنهم لم يطلبوا الكثير».

وفي الأسابيع الأولى من عام ٣٢٩ ق.م دخل الجيش المقدوني أراكوزيا، وفر حاكمها بارساينتيس عبر الجبال إلى الهند، لكن الهنود أعادوه إلى بلده حيث أُعْدِمَ. وفي أراكوزيا أنشأ الإسكندر مدينة أخرى أسماها أيضًا الإسكندرية في موقع قندهار حاليًّا أو بجوارها. وفي الأزمنة القديمة — بخلاف الآن — كان الإقليم الممتد من «فرح» إلى بحيرة سيستان وعلى امتداد وادي نهر هلمند يمتاز بالخصوبة، وكان مأهولًا بالسكان رغم «رياح الـ ١٢٠ يومًا» التي كانت تعصف كل صيف من الشمال الغربي. وقد توقف الجيش حول قندهار في انتظار انقضاء الشتاء وقام خلال تلك الفترة بجمع الطعام قبل أن يتجه إلى الشمال.

وأثناء وجود الجيش في معسكره تواترت الأنباء بأن ساتيبارزانس، معززًا بقوات من فرسان باكتريا، قد عاد إلى آريا ليشعل ثورة جديدة. كما أن بيزوس أرسل أيضًا قوات من الفرسان غربًا ضد خطوط إمدادات الإسكندر وعين أحد ثواره حاكمًا جديدًا لبارثيا. فأرسل الإسكندر قائدًا اسمه أريجيوس على رأس قوات من الفرسان وقوات أخرى إلى آريا ليقمع هذه الثورات. كما أرسل أيضًا أربعة آلاف من المشاة وستمائة من الفرسان ليهدئ من القلاقل في أراكوزيا. وفور الانتهاء من جميع إمدادات الطعام تقدمت قوة الجيش الرئيسية صوب الهندوكوش.

سجل المؤرخون القدامى بوضوح المواقف الصعبة التي تعرض لها جيش الإسكندر منذ خروجه من قندهار وحتى وصوله إلى وادي كابول، فيقول كيرتيوس:

> «تقدم الإسكندر بجيشه نحو أراضي قبيلة مجهولة حتى بالنسبة لجيرانها، فلم يكن لديها أي اتصالات تجارية مع أي بلاد أخرى، وكان يطلق على سكانها البارباميساداي وهي قبائل متخلفة حتى بالمقارنة بالبرابرة، وقد أضفت قسوة الطبيعة على سكانها غلظة وقوة … وكانوا يبنون أكواخهم من القرميد، ولأن البلاد كانت تفتقر إلى الخشب (حتى إن قمم الجبال كانت عارية) فقد استخدموا

القرميد أيضًا في بناء أسقف مبانيهم ... وكان الثلج من الكثافة على الأرض بحيث تحول إلى جليد وصقيع دائم إلى الدرجة التي حالت دون وجود أي حياة لطيور أو حيوانات برية، وكانت السماء، أو بالأحرى ما يرى منها، بالنهار ملبدة بغيوم تقترب من الأرض وتجعل الجو أقرب إلى الليل، حتى إن المرء لا يرى ما حوله.»

زحف الجيش المقدوني في مشارف الربيع، أواخر شهر مارس/آذار أو أوائل شهر أبريل/نيسان، ولم يكن الطريق بين قندهار وكابول صعبًا في هذه الفترة من السنة، وتعتبر هذه إحدى الحالات النادرة التي صادف فيها سوء الحظ الإسكندر. ومثلما حدث مع نابليون في موسكو فربما خدع الإسكندر ببعض أيام متتالية من الدفء أعقبتها سلسلة من العواصف المتتالية كبدته خسائر جسيمة. ولو كان قد تخلف بضعة أسابيع بالقرب من قندهار لكان أسهل عليه أن يتقدم بجيشه شمالًا، لكن كان من الواضح أنه توغل شرقًا أكثر مما يلزم سواء كان ذلك عن عمد أو مصادفة، ليصل إلى وادي كابول المأهول بسكانه. وكل ما نعرفه الآن أن الجيش المقدوني قد وقع في هذا الشرك ودفع ثمنًا باهظًا لقاء هذا، ويضيف كيرتيوس قائلًا:

«كان الجيش معزولًا في هذه المنطقة التي كانت خالية من أي مظاهر الحياة الإنسانية، فواجه كل الصعاب والمشقات التي يمكن أن يتحملها، كقلة المؤن، والصقيع الذي لم يكونوا يألفونه، حتى إن بعض الجنود أصيب بقضمة الصقيع، وبعضهم أصابته الثلوج بالعمى. ولقد كان هذا أمرًا قاتلًا لرجال يعانون الإرهاق ...»

«كانت النجاة تكتب لمن يستطيعون الوصول إلى أكواخ البرابرة، لكن الظلمة الكثيفة كانت تحول دون رؤية هذه الأكواخ إلا من خلال الدخان المتصاعد منها. أما قاطنوها فلم يكونوا قد رأوا أي غرباء أو أجانب في أراضيهم من قبل، لذلك فقد أصابهم مرأى الدخلاء المسلحين بالذعر والفزع ... كان الملك يتفقد قواته وهو سائر على قدميه، ينهض بعض الجنود الذين سقطوا من فرط إعيائهم على الأرض، ويساعد البعض الآخر ممن يتحاملون على أنفسهم كي يواصلوا السير. كان في لحظة ما يُشاهَد في المقدمة ثم في لحظة

أخرى يُرى في وسط الجيش أو في مؤخرته مضيفًا بذلك على نفسه أعباء إضافية.»

وتثير هوية هؤلاء الباراباميسيداي البدائية الفضول، حيث يصفهم آريان بأنهم هنود ربما لظنه أنهم مثل «هنود الجبل» الذين وصفهم في جوجاميلا. ولكن إذا كان كيرتيوس صادقًا فيما يقوله عن عزلتهم الشديدة فإنه من الممكن أن يكونوا من سكان البلاد الأصليين القدماء الذين عاشوا في تلك المنطقة، وهي سلسلة جبال سليمان حاليًّا أو الجبال البيضاء، ولم تختلط بهم ثقافات شعوب أخرى كالإيرانيين أو الهنود.

وفي أرض كابول الخصبة وجد الجيش ما يقيم أوده، ليس بسبب قيادة الإسكندر المتهورة، بل بسبب جوها الدافئ ومحاصيلها اليانعة. لكن المقدونيين كانوا قد وصلوا إلى سد آخر منيع يعيق تقدمهم، وهو سلسلة جبال الهندوكوش التي أطلق عليها جيش الإسكندر «القوقاز». وقد أخطأ قدماء الإغريق حين اعتقدوا أن سلسلة الجبال الطويلة تقسم سهول العالم المنبسطة إلى الشرق والغرب، وأن منطقة القوقاز تمتد من جبال طوروس في آسيا الصغرى إلى الهند (لم ير الإسكندر أبدًا ما نطلق عليه الآن بلاد القوقاز التي تنحصر بين سواحل البحر الأسود وبين بحر قزوين).

يبدو غرور الجغرافيين الذين يتشيعون للإسكندر والذين زعموا أن نهر ياكسارتس حيث مات قورش — الذي يسمى سيردريا الآن وإن كان اليونانيون يسمونه تانايس — كان أحد روافد نهر الدون الحديث الذي يصب في بحر آزوف. ويقول روبن لين فوكس إن الجيش المقدوني ما إن وصل إلى أفغانستان حتى ضل طريقه وصار يسير على غير هدى ولم يكن على علم بالمسافة التي قطعها منذ مغادرته بلاده، ولا شك أن قوات الجيش بمختلف قياداته التي زحفت لأشهر طويلة قابلت خلالها صعوبات جمة لتصل إلى أراض صعبة وجو قاس لن تختلف مع هذه المقولة على الإطلاق. ولكن يبقى السؤال الحقيقي وهو ما الذي كان يعرفه الإسكندر في ذلك الوقت؟ وهو الذي كان يرشو أهم صناع الخرائط والجغرافيين في الإمبراطورية الفارسية. وربما كان — أو لم يكن — لديه خبراء يملكون معلومات دقيقة، أو قد يكون ذلك راجعًا إلى وطنية الفرس أو عدم كفاءتهم في الفترة الأخيرة من حكم الأكامينيد. ولكنه

كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الأقاليم الشرقية للإمبراطورية هي مفتاح الوصول إلى طموحه الأكبر وهو الهند، وأنه بعد الهند لا يوجد سوى المحيط ونهاية العالم. وكان من صالح الإسكندر، ومعه جيشه الذي بدأ التوتر يسوده، أن يسمى الهندوكوش بالقوقاز، ونهر ياكسارتس بتانايس ليؤكد بذلك لجيشه أنهم ليسوا ببعيدين عن أوروبا والعالم الذي يعرفونه.

وفي سفح جبال الهندوكوش أسس الإسكندر مدينة جديدة «الإسكندرية في بلاد القوقاز» وربما كان ذلك في موقع كابيش كانيش الفارسية بالقرب من باجرام الحديثة. ويعتبر الإسكندر واحدًا من أشهر بناة المدن في التاريخ، حيث أنشأ عشرين مدينة على الأقل خلال حكمه (يقول بلوتارخ إنها سبعون)، ونالت أفغانستان نصيب الأسد. وكان الإسكندر يهدف من ذلك إلى أمرين هامين: أولهما أنه كان يحتاج إلى مدن عسكرية ذات اكتفاء ذاتي ترابط فيها قواته اليونانية أو المقدونية بحيث يتسنى لها السيطرة على الأراضي البعيدة بعد غزوها. وثانيهما أنه في خلال زحفه بجيشه كان يحتاج إلى التوقف عدة مرات ليترك وراءه الآلاف من الجرحى والمرضى أو القوات منهكة القوى والذين يعجزون عن الاستمرار في مسيرة الجيش. وكان الجيش المقدوني قويًّا خفيفًا يعتمد على السرعة في زحفه، ولم يكن يحمل أدوية أو أي وسائل علاج، لذلك فمن المتوقع مثلًا أن الحامية الأساسية التي تركها في إسكندرية القوقاز تضم في غالبيتها رجالًا أعجزتهم قضمة الصقيع. بل إذا أصيب أي جندي بالتواء كان يجد نفسه مرحلًا إلى عاصمة جديدة ولو بصفة مؤقتة. وفي بعض الحالات، مثل ما حدث في أراكوزيا، حين كان عدد المرضى قليلًا؛ ترك الإسكندر بعض قواته كحامية حتى لا يترك البلد دون أن يكون تحت حماية النخبة العسكرية من المقدونيين. وفيما عدا مدينة الإسكندرية في مصر فلم يكن هناك أي دافع لإنشاء مدن جديدة وسط بلاد مأهولة بالسكان. غير أن المبررات السابق ذكرها تزايدت بزيادة توغله في بلاد الشرق. وكلما تقدم الجيش في سيره، زاد عدد المدن، رغم أنها لم تدم فترة طويلة. وحتى اليوم لا يزال الأثريون يحاولون تحديد عدد الإسكندريات التي أنشأها الإسكندر في أفغانستان وما حولها، وإن كانوا أحيانًا يقومون بهذا الأمر كنوع من الرياضة.

بعد توافر الإمدادات استأنف الجيش زحفه عبر الهندوكوش إلى باكتريا. وقد استغرق هذا العبور سبعة عشر يومًا، وقد اختار الإسكندر ممر خاواك في

أقصى الشرق مخترقًا الجبال على أمل أن يتفادى بيزوس. كان فرسان باكتريا قد قاموا بتخريب الأرض الواقعة أمام الممرات الأخرى وكان من الممكن أن يفعلوا ذلك أيضًا عند ممر خاواك، وحين شرع المقدونيون في اختراق الممر كانت إمداداتهم متوفرة، ولكن عند خروجهم من الطرف الآخر كان الجوع قد نهشهم دون أن يجدوا أي طعام. وكانت الدواب خائرة القوى، وحتى يظل الجنود على قيد الحياة لجئوا إلى أكل خيولهم، وحميرهم أو بغالهم. ولم تكن الأخشاب التي يشعلونها متوافرة لديهم، فكانوا يأكلون الطعام نيئًا ويصطادون الأسماك من الجداول والأنهار، كما وجدوا أيضًا بعض جذور الأسفيتيفويدا في الأرض.

قدر إنجلز عدد قوات الإسكندر في هذه المرحلة، استنادًا إلى السبعة عشر يومًا التي عبر فيها الجيش الممرات الضيقة لمعبر خاواك بـ ٦٤٠٠٠ من القوات و١٠٠٠٠ من الفرسان، بالإضافة إلى نصف العدد المذكور والذي يشمل المصاحبين للجيش من الخدم والأتباع، وقد اعتمد في هذا التقدير رغم صعوبته على عنصري المكان والزمان أثناء تقدم الجيش.

وصل الإسكندر إلى درابساكا (قندوز حاليًّا) ثم استدار غربًا مخترقًا أورنوس (خلم) ليستولي على باكتريا العاصمة. وفي ذلك الوقت كان الجيش قد استعاد دفئه وتزود بالمؤن التي كان يستولي عليها بالقوة من أية مدينة أو قرية يصادفها في طريقه. ويصف كيرتيوس بصورة حية بالغة هذه الأراضي كما كانت في العصور القديمة قائلًا:

> «إن طبيعة جغرافية الأرض في باكتريا متغيرة الخواص والعناصر، ففي بعض المناطق نجد كثيرًا من الأشجار والكروم تغل محاصيل وفيرة من الفاكهة حلوة المذاق. أما الأرض الغنية فترويها الينابيع العديدة، وبقية الأراضي الخصبة مزروعة بالقمح الذي يترك المواطنون بقاياه لرعاية الماشية. أما بقية الأراضي الأخرى فتغطيها مساحات ضخمة من رمال الصحراء، وهذه المنطقة المهجورة الجدباء لا يوجد بها أي حياة بشرية أو أية مزارع أو نباتات، والأرض الخصبة بها تؤوي أعدادًا كبيرة من البشر والخيل. ولذلك يمكن تقدير عدد فرسان باكتريا بثلاثين ألفًا.»

وفي بلخ علم الإسكندر بالأخبار الأخيرة عن آريا التي كان قد بعث أريجيوس إليها ليقمع التمرد الذي قاده ساتيبارزانس. فقد تقابل الجيشان في معركة لم تسفر عن انتصار أحدهما، وأخيرًا اخترق ساتيبارزانس صفوف الجيش وخلع خوذته وعرض إنهاء المعركة شخصيًّا مع أي بطل يقدمه المقدونيون. وتجاوب أريجيوس، الذي كان قائدًا لسلاح الفرسان اليوناني، وخلع خوذته بدوره ليكشف عن «شعر أبيض كثيف» وواجه خصمه، وتصارع الرجلان بين صفوف الجيش فرمى ساتيبارزانس رمحه لكن أريجيوس تفاداه ثم طعنه برمحه في رقبته فأوقعه من فوق حصانه، واستمر الفارسي يقاتل فسحب أريجيوس السلاح ووجه له طعنة قاتلة في وجهه، وهنا استسلم المتمردون الآريان وعاد أريجيوس إلى قواعده في الجيش ليقابل بالتهليل والإكبار، ورغم أن ملحمة الإلياذة قد مضى عليها ما يقرب من ألف عام، فإن ثقافة البطل الأوحد كانت أصداؤها ما زالت تغلب على الجيش المقدوني بل وعلى الإسكندر نفسه.

كان بيزوس قد أضاع فرصة الهجوم على المقدونيين بعد أن عبروا الهندوكوش وهم في حالة إعياء وضعف، وبدلًا من محاربتهم فإنه فور وصولهم غير المتوقع فر هاربًا مع سبعة آلاف من الفرسان عبر نهر الأوكسس بعد أن أحرق جميع القوارب خلفه. شرع الإسكندر في مطاردته ولكن كان شهر يونيو/حزيران قد حل، ومجددًا أخذته طبيعة أفغانستان الجغرافية على غرة، فما بين واحة بلخ الخصبة ونهر الأوكسس كانت الصحراء تمتد على مدى ٤٠ ميلًا اضطرت جيوش الإسكندر إلى اختراقها دون ماء كافٍ. وأصبح الرجال الذين لم يبرءوا من قضمة الصقيع بعد يحترقون الآن في رمال الصحراء. ولجأ البعض منهم إلى شرب النبيذ الذي زاد من شعورهم بالجفاف. وعند وصولهم إلى النهر أسرع الكثير منهم إلى إرواء عطشهم بسرعة ليعاجلهم الموت، ويتسبب في زيادة عدد قتلى هذه المعركة عن أي معركة أخرى، وفي تلك الليلة أمر الإسكندر بإضاءة المشاعل على التلال المجاورة ليرشد آلاف الجنود المتعثرين إلى معسكراتهم.

بعد وصولهم إلى نهر الأوكسس قام الإسكندر بتسريح تسعمائة من قدامى المحاربين المقدونيين طالبًا منهم العودة إلى منازلهم وإنجاب الأطفال، والأهم من ذلك أنه قام أيضًا بتسريح سلاح الفرسان الثيسالياني بأكمله والذي كان قد انخرط في الجيش في إكباتانا. وقد يبدو غريبًا أن يبعد الإسكندر أحد أهم

وحدات جيشه المختارة وهو على وشك شن هجوم عبر مساحات شاسعة على فرسان باكتريا وسوجديا وسيثيا. لكن الثيساليان كانوا قد خدموا تحت إمرة بارمينيو منذ مدة طويلة وكانوا مخلصين له بقدر إخلاص فرسان الإسكندر لقائدهم، وربما كان الإسكندر قد لاحظ خلال مسيرة قواته شيئًا من التذمر بعد مقتل بارمينيو وابنه، ولذلك، ورغم أهميتهم له، فإنه أحس أنه سوف يكون بمأمن إذا أبعدهم عنه.

بدأ الجيش في إعداد ألواح من الخشب لاستخدامها في العبور بعد أن ملأ الخيام بالقش الجاف وخاط الجلود بإحكام، وبعد خمسة أيام من العبور، اتجه الجيش بسرعة شمالًا إلى سوجديا، وهي المنطقة التي تشغلها اليوم دولتا «أوزباكستان وطاجيكستان» وهما من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق. وهناك علم أن اثنين من نبلاء سوجديا — سبيتامينيس Spitamenes وأوزيارتس Oxyartes — قد قبضوا على بيزوس ويرغبان في تسليمه إليه. فأبطأ الإسكندر من سرعة الجيش وأرسل فورًا بطليموس على رأس قوة ليسارع بالقبض عليه. وقد قال بطليموس بعد ذلك إنه قبض عليه بعد قتال سريع، ولكن حسب رواية أخرى أن سبيتامينيس سلمه الأسير وهو سعيد. وقد طلب الإسكندر من بطليموس أن يرسل إليه بيزوس عاريًا محاطًا بقيد خشبي حول عنقه في الطريق الذي سوف يسلكه الجيش. وهناك جلد عدة مرات قبل أن يرسله الإسكندر إلى بلخ ليجدع أنفه ويقطع أذنيه ثم يعود إلى إكباتانا حيث نفذ حكم الإعدام فيه بقسوة، طبقًا لتقاليد الفرس في التعامل مع المغتصبين.

جاءت ذروة حكم بيزوس القصير حين أطلق على نفسه اسم «أرتازيركسس» في العام الذي سبق القبض عليه، حين توقف زحف الجيش المقدوني فجأة وهو في طريقه إلى باكتريا وعاد القهقرى لإخماد أول ثورة للآريين، وبعدها زحف إلى الجنوب كأنما تخلى عن فكرة غزو باكتريا. وبدا واضحًا أن الإسكندر اختار طريقًا سهلًا لا يجابه فيه بأية مقاومة، ولذلك بدا وكأنه سوف يستمر في زحفه إلى الهند عن طريق آراكوزيا. وفي هذا الشتاء الرائع كان بيزوس قد عين حاكمًا جديدًا لبارثيا، وساهم في ثورات أخرى أيضًا في آريا كما حاول أن يدعم تحالفاته مع الولايات في شمال نهر أوكسس. ولنا أن نتخيل ما أصاب بيزوس من رعب حين بدأ جيش المقدونيين، وهو

أقوى جيش في التاريخ في ذلك الوقت، يتدفق من الممر في أقصى شرق جبال الهندوكوش في ربيع سنة ٣٢٤ ق.م، وهو نفس الشعور الذي ساد في سوجديا حين بدأ الإسكندر في عبور الأوكسس وهو يطارد غريمه.

لم يبالغ مؤرخو الإسكندر في نقد بيزوس بل كانوا يعتبرونه أكثر حيوية من داريوس. لكن محاربي شمال الأوكسس تصرفوا بحكمة وهم يسلمونه إلى الإسكندر على أمل أن ينالوا رضاه فيرحل بعيدًا عنهم. لكن الإسكندر، بدلًا من ذلك، كان يدرك تمامًا أن حدود إمبراطورية قورش تمتد بعيدًا شمالًا عند ياكسارتس، وكان في نيته غزو جميع الأراضي الواقعة بينهما، وكان يلزمه سنتان لتحقيق هدفه يتنافس خلالهما مع أقوى خصم قابله: سبيتامينيس.

بعد أن قام فرسان الإسكندر بالطواف حول المنطقة بحثًا عن تعويض ما فقدوه من خيل وهم في الطريق الوعر إلى أفغانستان، قاد الإسكندر جيشه شمالًا تجاه ماراساندا (سمرقند) عاصمة سوجديا. ومن هناك اتجه إلى ياكسارتس (سيردريا الآن) التي كانت تعتبر آخر حدود الحضارة حيث تقع خلفها أراض يقطنها البدو السيثيان، ولا شيء بعدها يستحق الغزو. وكان أغلب الإغريق يعتقدون أن حافة العالم تقع خلف الأفق الأسيوي، وأن الأجساد تبدأ في التحلل كلما اقتربوا منه. وكان قورش قد أسس على ضفاف نهر ياكسارتس سلسلة من المدن المحصنة ليصد أي غزو أو غارات من قبل السيثيان.

وبينما كانت فرقة من المقدونيين تجول في المنطقة تعرضت لهجوم بعض القبائل فقتل منهم البعض وأسر البعض الآخر، فاندفع الجيش وحاصر المهاجمين على جبل شاهق شديد الانحدار، وفي البداية تراجعوا خلف وابل من الرماح التي أمطرهم بها المعتدون. وكان الإسكندر كعادته في المقدمة فأصابه رمح في ساقه تسبب في كسر عظمة الساق الخارجية ورغم ذلك هاجمت قواته الجبل وقتلت الآلاف من المهاجمين.

وفي ياكسارتس كان الإسكندر قد قرر أن يشيد مدينة أخرى ليسميها «الإسكندرية البعيدة» في موقع خوجند الحالي لكنه علم بقيام ثورات ضده في جميع الأراضي الممتدة من ياكسارتس وحتى الهندوكوش. وأن الحامية المقدونية التي تركها في المدن السبع المحصنة التي أنشأها قورش قد ذبحت، وكان سبيتامينيس قد أغار على ماراساندا على رأس قوات كبيرة من الفرسان

معززة بفرق من السيثيان من قبائل الـ«داهاي»، وهي كلمة فارسية تعني «اللصوص»، أما قادة باكتريا فبعد استدعائهم لاجتماع في بلخ اشتموا رائحة خيانة فتمردوا بدورهم.

أرسل الإسكندر قوة ضمت ١٥٠٠ من المشاة وثمانمائة من الفرسان وستين من «الرفاق» بقيادة فارنوكيس Pharnuches جنوبًا إلى ماراساندا لتتعامل مع سبيتامينيس، ثم قاد بقية جيشه، ودمر حصون قورش الواحد تلو الآخر بعد أن عجزت أسوارها المشيدة من الطمي ومن القرميد على مقاومة أسلحة الحصار، وفي كل مدينة كان يذبح الرجال ويسبي النساء والأطفال. لكن أسوار أكبر مدينة هي سيروبوليس (كوركات) كانت منيعة فاستعصت عليه واستطاعت صد هجومه، ولهذا السبب استقطبت عددًا كبيرًا من المدافعين عنها من أنحاء المنطقة بلغ خمسة عشر ألفًا. وحاول المقدونيون البحث عن ثغرة أو نقطة ضعف يتسللون منها إليها فاكتشفوا وجود ممر مائي يقع تحت الأسوار، وأن مياهه تنخفض إبان الأشهر الأخيرة من الصيف ومن ثم يمكن عبور هذا الممر وهم جاثمون. وهنا أمر الإسكندر بشن هجوم على الجانب الآخر من المدينة حتى يحول الأنظار عن تلك البقعة، في حين تسلل هو من خلال هذه الثغرة على رأس مجموعة من حرسه وخيرة جنوده، ثم تمكن من الدخول إلى المدينة واستولى على بوابة منها ليسمح للقوات المقدونية بالتدفق خلالها. ولكن ما إن ترك السوجديانيون مواقعهم على الأسوار حتى اندفعوا نحو الغزاة بالداخل وجرح كراتيروس بسهم، كما تلقى الإسكندر ضربة على رأسه من حجر أفقدته بصره وقدرته على الكلام للحظات. لكن المقدونيين سرعان ما استعادوا تفوقهم وذبحوا المدافعين عن سيروبوليس بوحشية.

عاد المقدونيون يشيدون «الإسكندرية البعيدة» بمحاذاة أحد معسكراتهم وعلى مساحة قطرها خمسة أميال ونصف الميل. وتوزع العمل بين الوحدات المختلفة من الجيش بحيث أسفر هذا التنافس عن تشييد المدينة في عشرين يومًا. وخلال ذلك وصل السيثيان إلى الجانب الآخر من النهر وبدءوا يستفزون المقدونيين أثناء عملهم. وفكر الإسكندر، وكان محقًّا، أنه لو ترك هؤلاء المحاربين البدو دون أن يردعهم، فسوف يتزايد عددهم وسوف تدمر المدينة فور مغادرتهم لها. فوضع المنجنيق بمحاذاة الشاطئ، وبرمية حالفها الحظ قتل أحد قادتهم من مسافة لم يعهدها السيثيان من قبل. وحين تراجعوا شن

الإسكندر عليهم هجمات برمائية، فتقدمت القوارب ومعها المنجنيق في المقدمة، فيما هاجم المشاة الضفة البعيدة، وتبعهم الفرسان.

وعلى الجانب البعيد من ياكسارتس، تقدمت عناصر الجيش المقدوني إلى الداخل بسرعة أكثر من اللازم، فأحاط بها السيثيان يدورون حولها بخيولهم وأقواسهم في حلقات دائرية وهو نفس الأسلوب الذي اتبع بعد ذلك بألفي سنة في غرب أمريكا أثناء مهاجمة القطارات. لكن جيش المقدونيين كان جيش مواجهة أكثر من كونه جيشًا يعتمد على القذائف البعيدة المدى، وحين وصل الإسكندر إليهم وجد حلًّا للموقف، فقد هاجم السيثيان بجناحي جيشه في حين كان هو على رأس الفرسان الرفاق من اليمين. ولم يستطع السيثيان القيام بأية مناورة، فقد كانوا محاصرين بقوات متقاربة بعضها بالقرب من بعض، وقتل منهم الآلاف وأسر حوالي ١٥٠ جنديًّا. ولم يتوقف الإسكندر عن مطاردة الباقين إلا حين أصابه مرض الديسنتاريا بعد أن شرب ماء ملوثًا. وبعد ذلك عاد المقدونيون إلى ياكسارتس.

لم يلبث المقدونيون أن تلقوا أخبارًا عن كارثة. فقد نجحت القوات التي سبق للإسكندر أن أرسلها إلى ماراساندا في فك حصار سبيتامينيس عن قلعة المدينة، لكن بعد مطاردتهم للثوار في المناطق الريفية وقعت قوات الإغاثة في مصيدة، وهي مناورة مألوفة بالنسبة لمقاتلي السهول، تتمثل في التظاهر بالتقهقر حتى تظل القوات الغازية تطاردهم إلى أن تشعر بالإنهاك، ثم ينصبون لها كمينًا على حين غرة. وهنا قام الإغريق بتشكيل مربع بجوار شاطئ نهر زارافشان لكنهم قرروا بعد ذلك أن ينطلقوا نحو النهر لمزيد من الأمان، يقول آريان:

> «تبعهم المشاة دون أوامر صادرة إليهم بعد أن أصابهم الذعر والهلع، فرموا بأنفسهم في النهر دون انتظام وكانت ضفتا النهر شديدتي الانحدار. وحين أدرك البرابرة الخطأ الذي وقع فيه المقدونيون، اندفعوا بدورهم يخوضون النهر وراءهم بخيولهم، وقام بعض منهم بالإمساك بمن عبروا إلى الضفة الأخرى وأوشكوا على الفرار، والبعض الآخر كان قد ظل ثابتًا في موقعه على الشاطئ في مواجهة الجنود الذين كانوا بصدد العبور. فدفعوهم إلى النهر مرة ثانية، فيما أطلق الباقون سهامهم عليهم من الجانبين. وهاجم آخرون الباقين الذين

كانوا يهمون بإلقاء أنفسهم في النهر. كان المقدونيون محاصرين من جميع الجهات، فاضطروا إلى الفرار نحو جزيرة في النهر لكن السيثيان وفرسان سبيتامينيس أحاطوا بهم وقتلوهم جميعًا بالسهام فيما عدا بعضًا منهم أسروهم كعبيد ثم قتلوهم بعد ذلك.»

وتروي قصة أخرى أنه من قوة بلغ عددها ألفين وأربعمائة، تمكن ثلاثمائة من المشاة وأربعون من الخيالة، وليسوا من الضباط؛ من النجاة. وبعدها حذر الإسكندر بشدة الهاربين من المعركة من الحديث عن هذه الكارثة حتى لا يفت ذلك في عضد بقية الجيش. أما هو فقد بدأ في الزحف جنوبًا فورًا. وكان سبيتامينيس قد عاود حصاره لماراساندا ولكنه تركها مرة ثانية حين اقترب الجيش المقدوني القوي. وأثناء المطاردة وصل الإسكندر إلى ساحة المعركة وهو في حالة شديدة من الثورة والغضب. ولنا أن نتصور المذبحة التي جرت والتي تفوقت في قسوتها على المعركة الأخيرة لكاستر Custer، ولأن السيثيان كانوا يمارسون عادة سلخ فروة الرأس ويحملون قتلاهم معهم ويستولون على أسلحة القتلى من العدو، فمن الممكن أن تكون مثلها. وبعد أن سارع المقدونيون إلى دفن موتاهم بدءوا يطاردون العدو حتى حافة الصحراء، لكنهم أدركوا أن سبيتامينيس قد نجح في الفرار. وهنا صب الإسكندر جام ثورته وغضبه على المنطقة حول ماراساندا فخربها ودمرها، ودفع سكانها حياتهم ثمنًا لهذه المعركة سواء كانوا قد دعموا هذا التمرد أم لا. لكن هذا الانتقام لم يكن يجسد فقط غضب الإسكندر، فكما سبق للفرس تبني سياسة إحراق الأراضي في مواجهة غزو الإغريق، كذلك قام الإسكندر بنفس التكتيك حتى يحبط أي ردود فعل أخرى من جانب سبيتامينيس.

ظلت باكتريا تمثل مشكلة، وعاد الإسكندر إلى بلخ شمال أفغانستان في شتاء عام ٣٢٩–٣٢٨ ق.م، وكان التوتر يسود آريا، واستقبل الإسكندر هناك حاكمها السابق بارازانيس وهو مكبل بالقيود، وفي الليالي التالية التي حفلت بالشراب، ظهر بوضوح ميل الملك إلى تناسي جذوره والأخذ بمظاهر الحياة الشرقية في ملبسه وعاداته ومسلكه ككل، مما أثار القلق في نفوس معاونيه من المحاربين القدامى ودارت بينهم عدة مناقشات حول علاقة هذا بصالح الجيش. اتُخذ قرار بعدم محاولة العودة إلى الصحراء بين بلخ ونهر الأوكسس في الربيع، بل الاتجاه شرقًا لتهدئة البلاد، ومن ثم عبور النهر بسهولة بعد ذلك.

وفي ربيع عام ٣٢٨ ق.م أعاد المقدونيون غزو الأراضي شمال نهر الأوكسس، وفي هذه المرة قسم الجيش إلى خمس فرق سريعة. كما شيدوا حاميات على الهضاب بين كل مسافة وأخرى في محاولة تشبه استراتيجية سد المنافذ التي اتبعتها بريطانيا لحجز الكوماندوز من البوير في جنوب إفريقيا.

وفي منتصف أشهر الصيف تقرر أن تتقابل فرق الجيش الخمس في ماراساندا لبدء المرحلة الثانية من الحملة، لكنه في خلال تلك الفترة تسلل سبيتامينيس في غفلة منهم وأعاد غزو باكتريا. وكان سبيتامينيس قد وجد حلفاء جددًا في ماسجيتاي وهي قبيلة لها شهرة خاصة (كما يقول هيرودوت) لأنها قتلت قورش العظيم. ولم يؤكد آريان ما إذا كانت هذه القبيلة جزءًا من مجموعة قبائل السيثيان، تاركًا الاحتمال قائمًا أنهم قد يكونون بدوًا من الشعوب التي تتكلم التركية والتي تقطن الشمال الشرقي. أو يكونون من السامارتيان في أوكرانيا الذين يظهرون بين وقت وآخر على حدود الإمبراطورية الفارسية.

عبر سبيتامينيس مع قواته الجديدة نهر الأوكسس خلف الإسكندر واستولى على قلعة على الحدود. ثم أحاط بعد ذلك بالعاصمة في بلخ، ولكن لم يكن في مقدرة هؤلاء الخيالة حصار المكان، فاكتفوا بسلب ونهب المناطق المجاورة. ومن بلخ انطلق بعض من كانوا لا يزالون يتعافون من جراحهم من المقدونيين بالإضافة إلى فرق من الحامية إلى المعركة يقاتلون بشجاعة، لكن الهزيمة لحقت بهم وخسروا خسائر جسيمة. وفي ذلك الوقت وصلت قوات كراتيروس إلى مسرح الأحداث فتقابلت مع قوات سبيتامينيس على حافة الصحراء وقتل ١٥٠ من المراوغين في حين فر الباقون.

أمضى الإسكندر شتاء ٣٢٨–٣٢٧ ق.م في ماراساندا حيث كان تذمر الجنود قد بلغ حدًّا خطيرًا. ففي إحدى الليالي التي حفلت بالشراب — وهو ما صار عادة في القيادة العليا للجيش المقدوني — نشب جدال مباشر بين الإسكندر وكلايتوس، كانت الشرارة التي أشعلت هذا الجدال هي سخرية الإسكندر من الضباط الذين قتلوا في مذبحة زيرافشان، وبطريقة ما حين زاد الحضور في سكرهم أشار كلايتوس دون أن يعي إلى حنينه إلى والد الإسكندر فيليب الثاني. وكلايتوس الذي أنقذ حياة الإسكندر في جرانيكوس، والذي كان قائدًا لنصف فرقة الفرسان التي ترافقه، إضافة إلى أن الإسكندر عينه

حاكمًا لباكتريا؛ كان قد أثقله الشراب فقال إن فيليب حقق انتصارات أكثر من ابنه، وهنا انفجرت ثورة الإسكندر وأخذ يسبه بألفاظ مقدونية بذيئة، وانتهى الجدال بأن سدد الإسكندر حربته إلى صدر كلايتوس فقتله، لكنه بعدها ندم على فعلته وحزن حزنًا شديدًا وصام عن الطعام لعدة أيام.

كان الإسكندر لا يزال يحظى بالولاء الكامل الذي يكاد يصل إلى مرتبة التقديس من أغلب رجاله، وكانت ذكريات استقبال جيشه كجيش محرر في مصر وبلاد الرافدين ما زالت في ذاكرته، وكذلك في بابل حيث فرش طريقه بالورود. وفي المقابل فمنذ أن غادر الجيش فارس، وفي الوقت الذي لم يتجمد أفراده في الجبال أو يحترقوا بنار الصحراء؛ كانوا ينخرطون في معارك ضد أعداء لا يريدون الانسحاب، ومن أجل ماذا؟ فلو كانوا حقًّا إغريقًا فإن الإغريق لهم حرية الاختيار الشخصي وليسوا مجرد آلات مسخرة. وبالنسبة للإسكندر كان تبنيه للعادات الشرقية يتزايد، كما أصبح أيضًا أكثر تسلطًا في أساليبه بحيث أصبح أغلب قواده يخشون النقاش معه.

في أوائل عام ٣٢٧ ق.م انتشرت قوات الجيش في ساحة القتال، وفي هذه المرة انتصرت الفرقة التي يقودها كوينوس على سبيتامينيس الذي كان على رأس ثلاثة آلاف مقاتل، وقتل من جيش سبيتامينيس ثمانمائة. وبعدها انسحب الماساجيتا من الجيش وقبضوا على سبيتامينيس وقطعوا رأسه وقدموها إلى الإسكندر كبادرة للسلام. وبمجرد أن زال هذا التهديد من طريق الإسكندر، تفرغ المقدونيون خلال بقية العام لتطهير الحصون المقامة على الجبال التي كانت قد صمدت ضد الغزو. وكانت أشهر معركة قتال تلك التي نشبت على «صخرة سوجديان» وهي جرف لا يمكن الوصول إليه، كان أوزيارتس — النبيل الباكترياني — قد احتمى به مع آلاف من جنوده ومعه مؤن تكفيه عشر سنوات. وحين وصل الإسكندر طالبه بالاستسلام فكان رد أوزيارتس أنه كان من الأولى به أن يأتي بقوات ذات أجنحة لأنه بدون ذلك لن ينهار هذا الحصن أبدًا.

بحث الإسكندر في جيشه عن متسلقين للجبال، وحين وجد ثلاثمائة منهم أمرهم بتسلق المنحدرات الشاهقة خلف الصخرة واعدًا إياهم بمكافآت جزيلة. ومن هؤلاء الثلاثمائة سقط ما يزيد على الثلاثين متسلقًا فلقوا مصرعهم. لكن في الصباح الباكر نظر أوزيارتس إلى أعلى فطالعته قوات من الإغريق فوقه ومن

خلفه وقد امتلكوا اليد الطولى عليه. وكان من الواضح أن الإسكندر لديه فعلًا «رجال ذوي أجنحة» ولم يجد أوزيارتس مفرًّا من الاستسلام. وتقبل الإسكندر استسلامه بشهامة. وفي غضون ذلك لمح فتاة جميلة من بنات أوزيارتس اسمها روكسان Roxane.

قرر الملك الأعزب أن يتزوج روكسان، وأقيم حفل الزفاف في أواخر ربيع ٣٢٧ ق.م في بلخ. ويقول مؤرخو الإسكندر معبرين عن رأي من حضروا حفل الزواج إن روكسان كانت أجمل امرأة في العالم ولا تفوقها إلا ستاتيرا Stateira زوجة داريوس الثالث، وكان في هذا التعليق شيء من المبالغة كان من الممكن أن يصححها الإسكندر لو كان العمر قد امتد به أكثر من ذلك. لقد كان زواج الإسكندر من روكسان ذا هدف مزدوج، فمن ناحية كان يرغب في تدعيم حلفه مع باكتريا والأقاليم الشرقية، وعلى جانب آخر كانت روكسان امرأة جميلة بكل المقاييس، هادئة الطبع وتتميز بذكاء حاد (وهو ما ظهر فيما بعد حين قامت بقتل زوجة الإسكندر الثانية ابنة ستاتيرا)، وسبب ثالث هو أنه بعد الحملات في أفغانستان وشمال نهر أوكسس كانت فترة الشباب الثائر في عمر الإسكندر قد ولت، حيث كان قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره، ولم يبق في جسده موضع لم يصب فيه بجرح. وفي ضوء الانقسام والخلاف الذي أصاب جيشه، أحس بأنه من الواجب عليه أن يخلد اسمه وليس فقط انتصاراته.

بعد زواجه من روكسان بدأ الإسكندر يعد العدة لغزو الهند، فعهد إلى عشرة آلاف من المشاة، وثلاثة آلاف وخمسمائة من الفرسان بالبقاء مع أمينتاس نائبه في باكتريا. وفي نفس الوقت ضم إلى جيشه فرسانًا من باكتريا ومن سوجديا ليملئوا هذه الفجوة من ناحية، ومن ناحية أخرى ليسحب الشباب المحارب من الأرض التي انتصر عليها، مما يقلل فرصة حدوث تمرد آخر أو ثورة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك كان قد أمر بتجنيد ثلاثين ألفًا من الشباب من الأراضي الشرقية لتدريبهم كمشاة طبقًا للأسلوب المقدوني. وبالطبع لم تُرض هذه التحركات قدامى المحاربين المقدونيين. وفي بلخ كُشف عن مؤامرة أخرى لقتل الإسكندر بعد تجربته التي تفتقد إلى الحكمة لإدخال سلاح البروسكينيسس — وهو نوع من الأقواس كان يستخدمه ملوك الفرس — إلى الجيش المقدوني. وأُعدمت مجموعة من خدم الإسكندر ومعهم كاليسثينيس مؤرخ البلاط وابن أخ أرسطو الذي كان دائمًا يتغنى بمآثر الإسكندر، لكنه

كان مستاءً من توجه الإسكندر نحو تبني العادات الشرقية إلى درجة أنه رفض ذات مرة — على مسمع ومرأى من الملأ — قبلة ملكية، وبصفته معلم الخدم فقد كان مسئولًا عن سلوكهم ولهذا أعدم معهم.

وفي أوائل الصيف عاد الإسكندر ليعبر جبال الهندوكوش مرة ثانية، ولكن لأنه في هذه المرة لم تكن أمامه أي خطط ملحة، فقد اختار أسهل الطرق، ومن المحتمل أنه اتجه صوب ممر سالانج الذي يحتل موقعه الآن نفق حفر إبان العهد السوفييتي (ويعتقد البعض أنه اخترق ممرات باميان). وتوقف الجيش عند إسكندرية القوقاز ليقابل سفراء من الهند. كانت الفرس في فترة ما قد حكمت الأراضي الممتدة شرقًا حتى نهر السند وجنوبًا حتى بحر العرب. لكن الأكامينيد فقدوا سيطرتهم عليها، وانقسمت المنطقة إلى ممالك مستقلة. قدم ملك تاكسيلا، وهي إحدى تلك الممالك المستقلة، فروض الولاء إلى الإسكندر، فقد كان يطمع في الاستعانة به ضد خصمه ومواطنه بورس الذي كان يحكم مملكة قوية تقع خلف جيلوم.

هاجم الإسكندر الهند بقوتين، قاد إحداهما صديقه هيفاستيون Hephastion وكانت مؤلفة من أغلب الجيش، والحرس الملكي وأتباع المعسكر، وسار بحذاء نهر كابول ومنه اخترق ممر خيبر ليصل إلى الأراضي المنبسطة الخصبة التي تعرف اليوم باسم باكستان. أما الإسكندر فأخذ قوات الجيش الخفيفة، واختار نخبة منها ليعبر ممر نهر نهاواك إلى أقصى الشمال، وفي طريقه مر بمنطقة مليئة بالغابات حيث ينمو شجر اللبلاب. تقول الأساطير اليونانية إن ديونيسيوس بدأ انتصاراته من الهند، ويقال إن رجال الإسكندر توقفوا ليقيموا حفلًا لباخوس إله الخمر لاعتقادهم أنهم وجدوا الأرض التي وطأها ديونيسيوس، وأطلقوا على هذا المكان اسم «نيسا» تيمنا باسم مرضعة الآلهة. وبعد ذلك عسكر الإسكندر في المنطقة المسماة حاليًّا سوات وباجور. وبعد أن انتزع إعجاب السكان الوطنيين بقصصه الخيالية عن المدن التي حاصرها والعقبات التي صادفها — والتي في تاريخ الإغريق، لم يتغلب عليها سوى هرقل وديونيسيوس — لحق الإسكندر بباقي جيشه في سهول السند.

خاض الإسكندر آخر معاركه العظيمة عند نهر جيلوم ضد بورس الذي حشد عددًا ضخمًا من الأفيال بالإضافة إلى المشاة والفرسان، جاعلًا

الإسكندر يدخل في معركة قيل عنها إنها الأصعب في تاريخه. ومع ذلك انتصر الإسكندر، وخلال القتال بلغ إعجابه بشجاعة بورس أن أعاد تنصيبه ملكًا على المنطقة. استأنف الجيش بعدها مسيرته صوب ما يعرف اليوم بنهر بيس، لكن القوات المقدونية كانت قد نالت كفايتها من الحروب فرفضت التوغل أكثر من ذلك.

كان الإغريق يعتقدون أن الهند عبارة عن خط رفيع يفصل اليابسة عن المحيط، الذي هو مساحة هائلة من المياه تحيط بالأرض. أما بالنسبة للإسكندر فقد كانت الهند تمثل المرحلة الأخيرة من غزو العالم. لكن الجيش كان لديه معلومة أخرى خاصة به، وهي أن البنجاب ليست نهاية الأرض، وأنه سوف يعقبها قتال، وصعاب ومسيرات أخرى لا تنتهي. ظل الإسكندر متجهمًا لأيام لكن قادة الجيش وجنوده أكدوا له هذه الحقيقة. وكان من الواضح أنهم علموا من السكان المحليين أن الهند أكبر بكثير مما يعتقد الإغريق، وربما يكون قد تناهى إلى مسامعهم أيضًا معلومات عن مدى امتداد جبال الهيمالايا الضخمة وأنه خلفها تقع أرض أخرى واسعة لم يتم غزوها بعد وهي الصين.

ورغمًا عنه اضطر الإسكندر إلى أن يتخلى عن فكرة المضي في انتصاراته شرقًا، ولأول مرة في حياته بدأ يتراجع، وكان أفضل سبيل لذلك أن يعود من نفس الطريق الذي جاء منه. وفعلًا أرسل كراتيريوس مع قوات كبيرة إلى أراكوزيا، لكن الإسكندر، رغمًا عن ذلك، كان لا يزال يتطلع إلى بلاد أخرى يغزوها، ولذلك بينما كان يتقهقر راجعًا، قرر أن يعبر الأراضي بمحاذاة بحر العرب جنوب أفغانستان، وكانت النتيجة أنه فقد ثلاثة أرباع جيشه من جراء شدة الحرارة والجفاف والإرهاق الذي أصاب الجنود في مسيرتهم القاتلة عبر صحراء جدروسيان في بلوخستان الحديثة وشرق إيران.

بدأ سوء الحظ منذ ذلك الوقت يطارد الإسكندر، فقد كان الصراع مع الإنسان والطبيعة تحت ظلال الهندوكوش قد امتص كل الحيوية التي كانت تدفعه هو وجيشه إلى الانتصارات المذهلة التي حققها ضد الإمبراطورية الفارسية، وعاد الإسكندر إلى بابل، المدينة الأولى في إمبراطوريته العظمى. لكنه توفي بعدها وهو يخطط لحملات جديدة في بلاد العرب، وقرطاجنة، وربما أيضًا السهول الشمالية. وحين وقع فريسة الحمى لم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره.

الفصل الثالث

غنيمة النصر

مثل الشهاب الذي يضيء في لحظة كل ما في طريقه ثم يختفي، ألقى جيش الإسكندر نظرات خاطفة على أحوال أفغانستان في أواخر القرن الرابع ق.م، لكن هذا الضوء انطفأ بعد أن انتهى زحف الجيش. وخلال الألف عام التي توالت بعد ذلك حرم التاريخ من ثروة المعلومات التي تدفقت في الفترة ما بين عامي ٣٢٩ و٣٢٧ ق.م. ومن المفارقات الغريبة، أن المعارك العنيفة التي اندلعت في باكتريا وأراكوزيا وجاندهارا ثم آريا تزايدت حدتها وكثافتها في العصور التي توالت بعد الإسكندر، لكنها كانت بعيدة عن الحضارة الوحيدة المعاصرة التي يمكنها تسجيل التاريخ. فلم يسجل الهنود أو الفرس أو السيثيان أو أولئك البدو المغيرون القادمون من آسيا الوسطى أية أحداث بتفصيلاتها، مثلما فعل العلماء الإغريق الذين ساروا على خطى هيرودوت. ولهذا فليس أمامنا إلا أن نعتمد على علماء الآثار وعلماء المسكوكات وعلماء اللغة لتتبع تاريخ تلك البلاد حتى ظهور الإسلام الذي أوجد ثقافة مدونة سادت أفغانستان بعد آلاف السنين من انتصار المقدونيين. ومثلما احتاج العرب إلى عقود طويلة ليهيمنوا على أفغانستان، كذلك استغرقت الهيلينية فترة طويلة كي تلفظ أنفاسها الأخيرة عبر مراحل متقطعة وموجعة أحيانًا.

حين كان الإسكندر على فراش الموت، التف حوله قواده يسألونه عمن سيرث إمبراطوريته، ويقال إن الملك همس لهم قائلًا: «هي للأقوى.» وإذا صحت هذه الرواية فمعناها أن الملك أنهى بنفسه سلالة الأرجيد التي كان يمثلها طفله الذي كان في رحم روكسان ولم يولد بعد، وأخوه المعاق ذهنيًّا أرهيديوس الذي كان قد تركه في مقدونيا. ومع ذلك فإن قادة مقدونيا بذلوا جهدًا خالصًا لاستمرار بقاء الإمبراطورية، ولانعدام الثقة فيما بينهم حاولوا الإبقاء على وحدتها من

خلال مساندتهم لشخص من نسل الملك بصرف النظر عن مدى ضعفه. ولذلك كان أصدقاء الملك والفرسان الذين انضم إليهم عديد من الباكتريان والمجندين من دول آسيا يريدون مناصرة ابن الإسكندر، لكن قدامى العسكريين من سلاح المشاة كانوا رافضين نزوع الملك إلى العادات الشرقية ومن ثم عارضوا فكرة أن يحكمهم ابن امرأة من البرابرة. وأخيرًا توصلوا إلى تسوية مفادها تنصيب طفل الإسكندر ملكًا وتسميته «الإسكندر الرابع» وتسمية أرهيديوس «فليب الثالث» على أن يشاركه في حكم البلاد. وقد ظل هذا الاتفاق ساريًا مدة سنتين وسط طموحات القادة التي كانت لا تهدأ، إلى أن تحققت القاعدة التي أرساها بيتس بعد ذلك: «إذا تداعى ما حول المركز فلا بد للمركز أن يتداعى.»

قتلت روكسان زوجة الإسكندر الأولى زوجته الثانية — ابنة داريوس الثالث — وقتلت هي بدورها مع طفلها الإسكندر الرابع الذي كان في الحادية عشرة من عمره على يد كاسندر — ابن أنيتباتير الذي كان حاكمًا لمقدونيا. أما أم الإسكندر أوليمبيا فإليها يرجع الفضل في مقتل أرهيديوس (بالإضافة إلى آخرين) وانتهى الأمر بها أن قتلت هي أيضًا بطريقة قاسية — ربما تستحقها.

وانتهى بذلك نسل أرجيد، ومن الغريب أن الإسكندر الذي كان يتسم بالواقعية، أهمل تمامًا تحديد من يخلفه. يمكننا أن نستنتج أن اعتقاد الإسكندر بأنه إله أو ابن إله جعله لا يهتم على الإطلاق بأسرته، فيما عدا أمه. ويبدو أن الفكرة الوحيدة التي كانت في ذهنه هي تولي صديق عمره هيفاستيون العرش من بعده. وفي الواقع فإن روكسان لم تصبح حاملًا إلا بعد وفاة هيفاستيون (يمكن أن نطرح جانبًا النظريات التي تقول إن الإسكندر مات مسمومًا لو أن هيفاستيون لم يمت بنفس الأسلوب إثر حمى طويلة أصابته بعد تجرعه نبيذًا خالصًا في العام الذي سبقه.)

ولكن أن يقال إن إمبراطورية الإسكندر تهاوت بعد موته، فإن هذا يغفل حقيقة هامة، وهي أن انتصارات الإسكندر سببت امتداد العصر الكلاسيكي الإغريقي ليشمل عصرًا هيلينيًّا طويلًا صمدت خلاله القيم الإغريقية لمئات السنين، عبر حضارات قديمة امتدت من الهند وحتى مصر. وإذا كان من المتعذر حكم هذه الأراضي الواسعة في العالم القديم بنظام أحادي، فهذا يعتبر واحدًا من سمات العصر الهيليني. فاليونان نفسها لم تستطع أن تتوحد تحت حكم ملك واحد أبدًا.

تُركت الإمبراطورية تحت سيطرة القادة المقدونيين، وبعد عشرين عامًا من السياسات الفاسدة والمعارك الممتدة تفتتت إلى ممالك متفرقة. وكان بطليموس أول المطالبين بحقه، وبصفته حاكمًا لمصر تمكن من الاستقلال بها وجعل ملكها وراثيًّا بشكل استمر إلى أن أتى عهد كليوباترا. كما قام بطليموس أيضًا باختطاف جسد الإسكندر الذي كان في طريقه إلى مقدونيا. وقام بتهريبه إلى مصر ليرقد مسجًّى هناك حيث رآه الآلاف من الزائرين. (واكتشاف جسد الإسكندر — الذي استفاد بدون شك من أسلوب التحنيط عند القدماء المصريين — ما زال أملًا أمام علماء الآثار ليكون أهم اكتشاف أثرى حديث في القرن الحادي والعشرين. ولكن لأن مربع القصور الملكية للإسكندرية القديمة ما زال غارقًا تحت المياه فمن البديهي أن يكون نائمًا هناك مع الأسماك.)

وفي بابل تمكن جنرال يدعى سيلوكوس Selucus من السيطرة على الأراضي الوسطى والشرقية من الإمبراطورية الفارسية السابقة. ولا يكاد اسم سيلوكوس يذكر في الروايات التاريخية حين كان الإسكندر على قيد الحياة، ولكنه عند وفاة الإسكندر كان قائدًا لفرقة «حاملي الدروع» وكان من الواضح أن نجمه قد بدأ يبزغ. وحين طلب الإسكندر من ثمانين من ضباطه أن يتزوجوا من النبيلات الفارسيات، كان اختيار سيلوكوس غريبًا بعض الشيء، فقد تزوج من أباما ابنة سبيتامينيس، ورغم أن عقد زواج الكثيرين من الإغريق انفرط بعد موت الإسكندر، فإن زواج أباما وسيلوكوس ظل قائمًا. ورغم أن مصر ومقدونيا (اليونان) كانتا تعتبران الجائزة الكبرى التي يمكن اقتطاعها من إمبراطورية الإسكندر، فإن سيلوكوس استولى على الجزء الأكبر وهو مليون ونصف مليون ميل مربع في المساحة، وثلاثون مليونًا من السكان، في مقابل ستة أو سبعة ملايين من السكان في مصر وفي شبه جزيرة البلقان.

وهذه المساحات الواسعة من الإمبراطورية التي استولى عليها سيلوكوس سببت له كثيرًا من المتاعب، فقد اضطر إلى إعادة غزو كثير من أراضيها بحيث استحق لقب سيلوكوس نيكانور الأول (المنتصر)، وكانت أولى مشكلاته هي الإبقاء على الحاميات في أفغانستان وفي الشرق، حيث إن أغلب الإغريق الذين تركهم الإسكندر هناك تمردوا على عزلتهم، كما أن القوات البالغ عددها ثلاثين ألفًا التي كانت مرابطة في باكتريا حاولت العودة إلى موطنها عام ٣٢٥

ق.م بمجرد أن سرت إشاعة عن موت الإسكندر. وعندما تأكدوا من موته فعلًا ثاروا مرة أخرى مما اضطر برديكاس Perdiccas إلى قمع هذه الثورة بعنف.

كان رد فعل سيلوكوس تشكيل حملة استعمارية ضخمة تشكلت من الفقراء أو الطموحين من أهالي المدن الإغريقية حتى يمكنه إحداث توازن مع السكان الهيلينيين في الشرق. وقد علق المؤرخ مايكل جرانت على ذلك بقوله: «كان ما حدث هو أكبر مقامرة في التاريخ القديم حتى إنها تفوقت على الحركات الاستعمارية اليونانية في العصور القديمة من ناحية حجم الأراضي التي استعمرتها. والواقع أن الإسبان فقط هم الذين تساووا معها في استعمارهم لأراضي المكسيك وبيرو — ومثل ما حدث مع أمريكا الإسبانية كانت المنطقة الشرقية مفتوحة أمام أي مغامر يريد أن يأخذ فرصته.» وقد تطورت مناطق الحاميات القديمة لتصبح مجتمعات كان الإغريق يقومون فيها بدور أسياد السكان المحليين والمدافعين عنهم.

وفي عام ٣٠٥ ق.م ظهرت قوة أخرى جديدة في شبه القارة الهندية قادها شاندرجوبتا موريا Chandragupta Maurya. فبعد ابتلاعه المدينة الإغريقية الضعيفة التي كانت هناك محاولة لإنشائها في «البنجاب حاليًّا»، زحفت الجيوش الهندية لتعبر سلسلة جبال سليمان وتهزم سيلوكوس في أراكوزيا. ومن الغريب أن كلا الجانبين بعد ذلك وصلا إلى اتفاق ودي، تبسط من خلاله الإمبراطورية الموريانية سيادتها على جنوب أفغانستان فيما قبل قندهار، وهو الذي يعادل في أهميته بالنسبة للإغريق إسكندرية أراكوزيا. وفي المقابل تسلم سيلوكوس خمسمائة فيل يمكن أن تساعده في معاركه في الغرب.

وفي عام ٣٠١ ق.م كانت حروب خلف الإسكندر من الملوك (الديادوشي) في أوجها. وفي ذلك الوقت كانت إمبراطورية الإسكندر قد انقسمت إلى خمسة أجزاء. فكان كاسندر Cassander يحكم مقدونيا واليونان، وليسيماخوس Lysimachus يحكم ثرايس، وبطليموس يحكم مصر، أما الأراضي الشرقية الممتدة من نهر الفرات حتى نهر الأوكسس فقد كانت تحت سيطرة سيلوكوس وهو في بابل. ولكن الخطر الأكبر أمامهم جميعًا كان يمثله أنتيجونوس Antigonus «ذو العين الواحدة» وابنه القوي الممتلئ بالحيوية والنشاط ديميتريوس Demetrius، وكان الاثنان يطمعان في إعادة توحيد الإمبراطورية

انطلاقًا من مكان مملكتهما القائمة في آسيا الصغرى وسوريا. وفي معركة إيبسوس اتحد سيلوكوس وليسيماخوس ضد أنتيجونوس. وكانت القوتان متعادلتين، تضم كل واحدة منهما ٧٥٠٠٠ مقاتل، لكن أفيال سيلوكوس هي التي أنهت المعركة لصالحه، فقد هاجمت الأفيال كتيبة الجيش ووطئت فرسانه. وبعد مطاردة لمسافة ميل كان جيش أنتيجونوس قد تقلص إلى ثمانية آلاف جندي.

غير أن الستار لم يسدل عن حروب «الديادوتشي» إلا بعد عشرين عامًا حين تقابل سيلوكوس مع ليسيماخوس في معركة كوروبيديون في آسيا الصغرى. والتقى المحاربان الكهلان بعد أن تجاوز عمرهما ثمانين عامًا، ليتصارعا وجهًا لوجه أمام جنودهما الذين وقفوا يرقبون المعركة في فضول. وانتهى الصراع بمقتل ليسيماخوس، وهزيمة قواته. وفي غضون عام توفي سيلوكوس أيضًا. وبموت آخر الورثة انقسمت إمبراطورية الإسكندر إلى ثلاثة أقسام: المملكة اليونانية تحت حكم نسل أنتيجونوس (مرة أخرى) ومصر تحت حكم البطالسة، والشرق تحت سيادة أبناء سيلوكوس. أما آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين فلعقود طويلة ظلت مسرحًا للمعارك يحكمها «الأقوى»، تمامًا كما أراد الإسكندر.

وفي أفغانستان استمرت الإمبراطورية الموريانية في التوسع بعد أن استولت على مناطق قندهار وغزنة وكابول وامتدت توسعاتها حتى سفوح الهندوكوش. وقد خلف شاندراجوبتا ابنه القوي بندوسارا Bindusara، وقام الموريان — وهم المحاربون من الهنود البراهمة — بمد سيطرتهم عبر أغلب شبه القارة الهندية، وفي عام ٢٦٨ ق.م ورث العرش أسوكا Asoka ابن بندوسارا وكان ما زال فتى مراهقًا، ولكنه استمر في الاستيلاء على أراض جديدة، لكنه بعد حصار مرعب نصبه حول مدينة كالينجا (أوريسا حاليًّا في الجنوب الشرقي من الهند) قتل فيه جيشه مائة ألف إنسان وشرد مائة وخمسين ألفًا آخرين وقع أسوكا فريسة هزة نفسية عنيفة، فقد استولت عليه حالة من القلق النفسي من جراء المذابح التي تسبب فيها فاعتنق مذهب البوذية.

ولأنه كان ذا شخصية تتسم بالقوة والحيوية، فقد مضى ينشر فلسفته الداعية إلى احترام جميع مظاهر الحياة بنفس القوة التي كان يدعو بها إلى معاركه الحربية، فنقش بعض التعاليم التي أطلق عليها «أعمدة الفضيلة»

على الأحجار في كل أنحاء إمبراطوريته وبلغات مختلفة هي السنسكريتية، والفارسية والإغريقية، وقد وجد البعض منها في أفغانستان. واستنادًا إلى ما يقوله لويس دوبريه Louis Dupree فقد وجد أحد هذه الأعمدة وعليه حروف إغريقية عام ١٩٥٨م في موقع معد للبناء في قندهار. وكان العمال على وشك تدميره لاعتقادهم بأن الكلمات التي حفرت عليه كلمات إنجليزية تمجد انتصارات البريطانيين في القرن التاسع عشر، لكن أحد مديري المدارس المحلية قام بإبلاغ مدير الجمعية التاريخية في أفغانستان.

واليوم يتذكر العالم أسوكا كأول نبي عظيم للبوذية يستخدم وسائل تعليمية لينشر رسالة كانت في السابق تنتقل شفاهة، وبعد وفاته عام ٢٣٢ ق.م بدأت الإمبراطورية الموريانية في الانهيار حيث إن البحث عن السلام الداخلي لا يتوافق مع ضرورة الدعوة المستمرة إلى الحرب.

بدأت مملكة السيلوكيد تفقد سيطرتها على الأراضي الشرقية حوالي ٢٥٠ ق.م، بسبب حادثتين مترابطتين: الأولى أن البارثيانيين — وهم شعب يسكن السهول وذوي قربى بالسيثيانيين — بدءوا في التدفق جنوبًا من موطنهم الأصلي شرق بحر قزوين. والثانية أن ديودوروس حاكم باكتريا، بدافع من عصر طويل من العداء لآل سيلوكوس والغزو البارثياني، بدأ يؤكد استقلال المملكة الإغريقية الباكتريانية — التي أصبحت حقيقة تحت حكم ابنه ديودوروس الثاني.

ويمكن لنا أن نتخيل أن الغزو البارثياني لم يكن في البداية حملة منظمة ولكنه كان مجرد حشد من محاربي السهول يشقون طريقهم سنة بعد أخرى خلال جسد الإمبراطورية الفارسية القديمة، وبعد أن يستولون على مدينة ما ويمتصون كل مواردها، كانوا ينتقلون إلى مدينة أخرى. لكنه مع تزايد قوتهم نتيجة فرضهم الجزية وإخضاع الشعوب التي يحتلونها في طريقهم إلى الثروة الهائلة في بلاد الرافدين، بدأت الهجرة المسلحة تتخذ شكل غزو منظم. لكن بالنسبة للباكتريانيين كان خطر البارثيانيين عليهم عظيمًا منذ البداية. فالطرق الملكية القديمة التي كانت تربط بلادهم بالغرب امتلأت بحشود تسعى وراء نهب الغنائم. لكن مملكة السيلوكيد — التي ظلت عقدًا كاملًا من الزمن منقسمة على نفسها نتيجة التنازع حول وراثة الحكم — لم يكن في مقدورها أن تبسط نفوذها على الشرق، فقد كان من المتعذر مرور التعزيزات والبضائع

وحتى الخطابات، وفي نفس الوقت كان الإغريق المحاصرون بالأعداء في باكتريا من كل جانب، على غير استعداد لتلبية مطالب السيلوكيد التافهة.

وهكذا ولدت مملكة الإغريق — الباكتريانية وهي دولة مميزة عجيبة استمرت في أفغانستان مدة ثلاثة قرون في عزلة تامة عن بقية العالم الهلينستي. ولم يُضع يوثيديموس Euthydemus خليفة ديودوروس الثاني وقتًا حتى بدأ في تطبيق سياسته الخارجية، فبدأ أولًا بالهجوم غربًا على البارثيانيين واستعاد هرات (الإسكندرية-آريا) ثم أرسل حملة تأديبية إلى الشمال اخترقت الأراضي السيثيانية لتعبر نهر ياكسارتس ثم تستأنف مسيرتها حتى مقاطعة زيانجنج في الصين.

ومع ذلك لم ينته السيلوكيد تمامًا، ففي عام ٢٠٩ ق.م جاء الملك أنتيوخوس الثالث Antiocus III وكان شابًّا شجاعًا فاكتسح إمبراطورية البارثيان الناشئة وبدأ في السير على خطى الإسكندر في الشرق، فاجتاح آريا، وأراكوزيا وتسلق جبال الهندوكوش إلى أن وصل إلى باكتريا. لكن أنتيوخوس التقى بيوثيديمس وأمكن من خلال هذا اللقاء التوصل إلى تسوية نزعت فتيل الحرب بين الباكتريان الإغريق بقوة فرسانهم والمملكة الأم، فقد اتفق الملكان على إقامة دفاع مشترك عن الهيلينية ضد جميع أعدائها الجدد، وعلى أن يمارس كل منهما ضغطًا على البارثيانيين إذا ما احتاج الطرف الآخر إلى ذلك. وحقيقة الأمر توضح أن أنتيوخوس قد رأى بعد عبور أراضيه الشرقية أن اتساعها سيمثل له عبئًا إذا ما حاول أن يحكمها من عاصمته الجديدة سيلوسيا في شمال بابل، ولذلك فقد استدار نحو الغرب تاركًا المملكة اليونانية الباكتريانية دون أن يقترب منها، في حين بدأ البارثيانيون في الإطباق عليه من الخلف بعد ذلك. وفي الغرب كان لجهود أنتيوخوس تأثيرها الفعال، فعام ٢٠٠ ق.م تمكن من انتزاع فلسطين من أيدي البطالسة المصريين، وفي عام ١٩٦ ق.م اتجه إلى أوروبا عازمًا على غزو اليونان.

قبل ذلك بسنوات قليلة كانت روما القوة الناشئة الجديدة في البحر المتوسط قد انتصرت على فيليب الخامس ملك مقدونيا. وأثناء الاحتفالات بالألعاب الأوليمبية التي جرت بعد ذلك أعلنت للجماهير المحتشدة إعادة نظام المدن الإغريقية المستقلة. وكرد على الغزو الذي قام به أنتيوخوس، أرسلت روما حملة أخرى بعد أن أثار غضبها أن القائد القرطاجي هانيبال

Hannibal أصبح المستشار العسكري لأنتيوخوس، وانتصر الرومان على جيش السيلوكيد في معركة ترموبيلاي عام ١٩١ ق.م، ثم طاردوه حتى سوريا. وفي معركة ماجنيسيا في العام التالي واجه أربعون ألفًا من المحاربين بقيادة سيبيو أفريكانوس Scipio Africanus — الذي انتصر على هانيبال في معركة زاما — جيش أنتيوخوس المكون من ثمانين ألف محارب. وكان السيلوكيد ما زالوا يستخدمون الأفيال في معاركهم منذ حصولهم عليها من الموريانيين، لكنه في وسط المعركة فرت الأفيال مذعورة أمام الفرسان الرومانيين ووطئت قوات السيلوكيد تحت أقدامها. وهنا هجم مشاة الرومان خلال ثغرات جيش العدو ليهزموهم شر هزيمة، وكجزء من شروط اتفاقية السلام التي عقدت بعد ذلك طالب الرومان بتسليم هانيبال، لكنه تمكن من الفرار ليصبح بعد ذلك هدفًا لمطاردة لا تهدأ أو تلين من قبل الرومان عبر بحر إيجة.

وحين لفظت مملكة السيلوكيد أنفاسها الأخيرة أصبحت المملكة الباكتريانية اليونانية أكثر استقلالًا من ذي قبل. ومع ذلك فإن تلك الولاية التي زرعت في الغرب لم تركن إلى الخمول. فقد اجتاح ديميتريوس الأول، ابن يوثيديموس؛ أراكوزيا مرة ثانية، وبذلك أصبحت كل أفغانستان الحديثة تحت حكم اليونانيين. ثم انتهز ديميتريوس تفكك الإمبراطورية الموريانية وعبر ممر خيبر ليستولي على قندهار. وفي عقود لاحقة عبر الإغريق نهر السند، واستمروا في مسيرتهم حتى وصلوا إلى عاصمة الموريان التي تسمى اليوم باتنا وتقع شرق الهند على ضفاف نهر الجانج. ثم سيطرت المملكة الباكتريانية اليونانية على المناطق من ميرف (في تركمانستان حاليًّا) إلى أفغانستان ومنها إلى تاكسيلا شرق نهر السند. لكن تركيز هذه المملكة كان يتجه شيئًا فشيئًا نحو الهند وقائدها العظيم ميناندر Menander الذي أصبح ملكًا عام ١٥٥ ق.م، والذي خلده البوذيون تحت اسم (ميليندا Milinda) ودونوا سلسلة من الحوارات التي أجراها مع أحد حكماء بوذا. ويعد ظهور ميناندر في الأدب الشرقي أمرًا جديرًا بالذكر لأن تاريخ المملكة الباكتريانية اليونانية مسجل فقط في العملات التي عثر على الآلاف منها في أفغانستان. والمفارقة هنا تكمن في أن هذه النقود تركت لنا تسجيلًا مصورًا للملوك الباكتريانيين الإغريقيين يماثل تمامًا الصور الحديثة. ولكن حين اختفى الإغريق من أفغانستان لم يخلفوا شيئًا وراءهم.

وفي بقية أنحاء العالم، كانت أحداث أخرى كبيرة تتوالى، فعام ١٦٨ ق.م سحقت روما أخيرًا قوة المقدونيين في معركة بيدنا. والعجيب أن الرومان قد تشربوا الثقافة الهيلينستية التي أصبحوا يسيطرون عليها، بل إنهم في الواقع لبسوا عباءة الإسكندر في نشر القيم والثقافة الإغريقية في أنحاء العالم. وبدرجة أقل استولى البارثيانيون على بقايا المملكة السيلوكيدية واحتلوا بابل. وأصبحت إمبراطوريتهم — التي بلغ اتساعها نصف مليون ميل مربع والتي تمتد من بلاد الرافدين إلى أفغانستان — هي المنافس الوحيد لقوة الرومان في ذلك الوقت. وفي منتصف القرن الأول ق.م طغت شهرة ثلاثة مواطنين من الرومان على الجمهورية الرومانية، كان أولهم بومباي العظيم Pompey the Great الذي وجه الضربة القاضية إلى شجرة المملكة السيلوكيدية في سوريا عام ٦٨ ق.م، وبعدها بسنوات وضع يوليوس قيصر Julius Caesar النهاية لحكم البطالسة في مصر، رغم إغراءات ملكتها كليوباترا السابعة Cleopatra VII التي حاولت استغلال أنوثتها في التأثير عليه وعلى مارك أنطونيو Marc Antony لتبقي حكم الإغريق. وفي عام ٥٣ ق.م زحف كراسوس Crassus — وهو الشخصية الثالثة في هذا الثالوث الذي كان يتطلع بشدة إلى نصر عسكري إلى جانب ثروته الطائلة — إلى بارثيا، لكن جيشه دُمر تمامًا في معركة كارهاي.

كان البارثيانيون يتبعون أسلوب حرب تقليدي يمارسه سكان السهول، فقد كان جيشهم يتكون من حملة السهام الراكبين، مع بعض التشكيلات المسلحة بالرماح الطويلة التي كانوا يستخدمونها ببراعة (والتي سيستخدمها الفرسان الأوروبيون لاحقًا). وضعت معركة كارهاي النهاية لتفوق التكتيكات الحربية المنظمة لفرق المشاة والتي استخدمها اليونانيون في معارك المواجهة المباشرة لأكثر من خمسة قرون وأتقنوها ونقلوها إلى العالم كله. استُدرج كراسوس إلى أراض قاسية جدباء، أحاط بها خيالة مراوغون برزوا على حين غرة وأخذوا يمطرون قواته بالسهام من كل جانب. حاول ابن كراسوس ومعه فرقة من النخبة المدربة جيدًا قوامها ألف وثلاثمائة مقاتل من الفرسان والقوات الخفيفة أن يَنْفُذ خلال هذه الدائرة الجهنمية، ولكن بدلًا من ذلك حوصر على الجبل وعندما أرسل يطلب النجدة — كان كراسوس على وشك الإسراع إليه — لكنه فوجئ ببعض المحاربين البارثيانيين يتجهون إليه وهم يلوحون برأس ابنه على أسنة الرماح. اهتزت أعصاب كراسوس بشدة ولم يدر

ماذا يفعل، فعرض عليه الملك البارثياني اللقاء والتفاوض، وتردد كراسوس، لكنه تحت ضغط مشاعر التمرد التي بدأت تسري بين قواته اضطر إلى قبول الدعوة. وفي ذلك اللقاء، قتل كراسوس وجميع من حضر معه وانهار الجيش بعد ذلك.

ورغم أنه كان من الممكن أن يجد قيصر أو بومباي حلًّا لهذه السلسة من المآزق التكتيكية التي واجهها كراسوس في كارهاي، فإن هذه الهزيمة عززت موقع بارثيا كسد منيع قوي بين روما والشرق. وفي الواقع، بعد تأمين الحدود الغربية عاد البارثيانيون إلى الشرق — إلى أفغانستان. وكما يقول كارو: «كانت معركة كارهاي واحدة من المعارك الفاصلة في العالم، وقد انتصر فيها رجال عاش أحفادهم بعد ذلك على الحدود الشمالية الغربية.» وكانت نتيجة هذه المعركة نذير شر للسكان المقيمين في كل مكان، حيث كان البارثيانيون أول جماعات البدو الرحل ممن يقطنون السهول الذين يحاربون بالخيل والرماح والذين تمكنوا من تشييد إمبراطوريات في العالم المتحضر — ولسوف يلحق الكثيرون بهم بعد ذلك.

في ذلك الوقت، لم يكن الباكتريانيون الإغريق أو الرومان أو حتى الهنود يعلمون أن هناك حربًا شرسة تدور رحاها في المناطق التي تعرف اليوم بأسماء سيبيريا، ومنغوليا في شمال غرب الصين. ففي نهاية القرن الثاني ق.م حدث اتفاق بين قبائل البدو الذين يسكنون سهول آسيا الوسطى على أن يتجهوا إلى الجنوب الغربي صوب أفغانستان. كان الصينيون يطلقون على هؤلاء الشعوب اسم يو-تشي ولكن الغرب عرفهم باسم الكوشان، وهو اسم أكبر قبيلة من القبائل الخمس المكونة لهذا التحالف. قد يكون انتقالهم راجعًا إلى طبيعة الجو في الشمال — سواء بسبب القحط أو قسوة الشتاء — أو ربما كان ذلك راجعًا إلى بناء الصينيين للسور العظيم الذي بدأ إنشاؤه عام ٢١٤ ق.م، والذي أصبح بعد ذلك من أعجب ما شيد الإنسان على ظهر الأرض. لكن هذا البناء في ذاك الوقت تسبب في خلق مشكلة كبرى لدى البدو، حيث تدفق مئات الآلاف من العمال والجنود الذين ينتمون إلى أسرة هان الحاكمة إلى المناطق الحدودية في مهمة قومية هدفها إجلاء البرابرة عن هذه الأرض. وكان من نتيجة هذا أن تضاءلت فرص النهب والسرقة التي كانت متاحة للبدو من قبل، وازدحمت الأراضي الرعوية التي يعيشون عليها،

مما نتج عنه حدوث نزاعات بين أفراد القبيلة الواحدة ومن ثم كانت هجرة الكوشان.

واحد من الآثار التي وقعت على أفغانستان جراء هذا الأمر، هو أن قبائل السيثيان (تسمى بالفارسية ساكا أو ساكاي)، التي ظلت لقرون عدة تقض مضاجع حكام المجتمعات المتحضرة، تدفقت بكثرة عابرة نهري ياكسارتس وأوكسس. في البداية اتجهوا غربًا، لكن بني أعمامهم من البارثيان، الذين كانوا قد أصبحوا قوة لا يستهان بها، تصدوا لهم بحزم. غيّر الكثيرون منهم خط سيرهم فاتجهوا جنوبًا نحو آريا حتى وصلوا إلى درانجيانا التي أسموها ساكاستان (تسمى اليوم سيستان)، ثم بعد ذلك عبروا قندهار التي تقع في جنوب أفغانستان حتى وصلوا إلى الهند. أما من تبقى من السيثيان فقد عبروا نهر الأوكسس متجهين صوب شمال أفغانستان، مكتسحين في طريقهم المملكة الباكتريانية الإغريقية.

لا تشير المسكوكات القديمة إلى تلك المعارك الضارية التي خاضها الإغريق ضد البدو الرحل من السيثيانيين، الذين لم يعد هدفهم من القتال مجرد الإغارة والسلب بل كانوا يستميتون في الحصول على النصر، وكانوا يصطحبون معهم نساءهم وأطفالهم وكل متعلقاتهم إلى ساحة المعركة. الواقع أنه من الصعب تحديد أعدادهم وكذلك أقسام جيوشهم. ونتساءل هنا هل هب المواطنون الباكتريانيون لمناصرة الطبقة الحاكمة اليونانية؟ وهل وجد السيثيانيون عونًا من رفاقهم الذين يتحدثون الإيرانية مثلهم والذين كانوا يعيشون كمواطنين من الدرجة الثانية في بلادهم، بحيث كانوا على أتم استعداد للمساعدة في تطهير أرضهم من الهيلينيين؟ ففي مملكة السيلوكيد لم يقدر لحلم الإسكندر بصياغة ثقافة مشتركة بين الشرق والغرب، الاستمرارية بعد موته، حيث عاد خلفاؤه من المقدونيين والإغريق إلى عاداتهم التقليدية في الملبس والعادات واضعين حدًّا فاصلًا بين الغزاة ومن تم غزوهم. أما في مملكة الباكتريان الإغريقية فلنا أن نتساءل هل كان الهيلينيون يعاملون المواطنين كعبيد؟ أم اندمج العنصران معًا؟ ولأن مملكة الباكتريان الإغريق دمرت تمامًا دون أن تترك أي سجلات مكتوبة، فمن الصعب أن نعثر على الإجابة.

بعد حكم ميناندر الرشيد للباكتريان الإغريق، أو بدقة أكثر بعد أن تحول مركز الجاذبية إلى مملكة الإغريق-الهندية، انقسم الهيلينيون إلى شراذم متفرقة

في حركة تزايدت مع هجوم السيثيانيين عليهم من كل جانب، إلى الحد الذي ظهرت فيه أسماء أربعين من الملوك على العملات النقدية في فترة لم تتجاوز السبعة عشر عامًا. ومع هذا، وكما تتقلص العضلات في الجسد الجريح، استمر الإغريق في القتال، وتمكن أحد حكامهم ويدعى أمينتاس Amyntas — من المحتمل أن يكون من إسكندرية القوقاز — من هزيمة شعوب المنطقة الممتدة من كابول الحديثة إلى غزنة. وقد كان الاسم الذي اختاره هذا الملك ليتم سكه على العملات النقدية أمينتاس نيكانور. بعد ذلك بسنوات تمكن السيثيانيون الذين كانوا قد انتصروا على السند — من الهجوم شمالًا ليجتاحوا الولايات اليونانية في الهند. وكان آخر من عرف من ملوك الباكتريانيين الإغريق هو هرمايوس Hermaeus الذي خلف والده أمينتاس عام ٤٠ ق.م، وحاول في وقت ما مواصلة القتال تجاه نهر السند مرورًا بوادي نهر كابول، ولكنه كان آخر من حكم هذه الدول التي لفظت أنفاسها الأخيرة بعد ذلك، وبعد سنوات قليلة توقفت السجلات التي تؤرخ لعلم المسكوكات اليونانية القديمة فجأة. أما القطع النقدية التي عرفت بعد ذلك فقد كانت تحمل صور الملوك السيثيانيين.

وبذلك، فبينما كان القيصر أغسطس Augustus Caesar يحكم روما القوية البالغة الاتساع في الغرب، كانت المملكة الهيلينية في الشرق، التي كانت منعزلة وفريسة سهلة لمقاتلي السهول الأميين من كل جانب، تلفظ أنفاسها الأخيرة، فقد كانت كشجرة تتهاوى في الغابة، كانت مملكة معروفة لكن مصيرها كان مجهولًا غامضًا.

ولقرون ظل السؤال الحائر الذي لا ينفك يطرح نفسه: هل اكتسب اليونانيون في أفغانستان نمط الحياة الهيلينية خلال فترة حكمهم، وهل اندمجوا في الشعوب الإيرانية ليخلقوا ثقافة مهجنة لا يعرفها الغرب؟ كانت المشكلة الكبرى التي واجهها علماء الآثار في أفغانستان هو أنه خلال تاريخ المنطقة الذي يمتد لآلاف السنين كانت معظم المباني تشيد من الطوب اللبن الذي يتحلل بعد ذلك إلى مادة مترسبة، وبمجرد أن تتلاشى تلك المباني يصبح من العسير تمييز بقايا المملكة الأكامينيدية القديمة عن الكوشانية أو الغزنوية، أو حتى عن بقايا قلعة دورانية شيدت في القرن الثامن عشر. ورغمًا عن ذلك ففي بداية عام ١٩٢٢م صممت جماعة من الأثريين الفرنسيين على العثور على آثار مدينة يونانية في أفغانستان. ومن المثير للاهتمام أن جهودهم في

بلخ — التي شملت اختبار ما لا يقل عن مائة موقع حفائر — لم تسفر إلا عن العثور على بعض شظايا أثرية من أوان فخارية. وظلت مئات من بقايا المدن والقلاع والآثار في البلاد صامتة لا تفصح عن شيء. ولولا تلك العملات الأثرية لما عرف أحد أن الإغريق قد عاشوا في تلك المناطق أبدًا.

وأخيرًا في عام ١٩٦٣م وجد الفرنسيون مدينتهم المفقودة، «آي خانوم» وتعني في لغة الأوزبك «امرأة القمر» شمال شرق أفغانستان عند التقاء نهر كوكشا مع أعلى آموداريا (جيحون). وربما كانت هذه هي «الإسكندرية في أوكسس». وقد وجد الفرنسيون تحت ترسبات قرون عدة مدينة اكتملت فيها كل عناصر المدن اليونانية التقليدية من مسرح إلى جيمنازيوم (مقسم إلى جزئين للعناية بالصحة الجسمانية والعقلية)، إلى أضرحة أبطال إغريقيين، وأخيرًا معبدًا للإله زيوس. وبين الأعمدة العديدة التي شيدت على الطراز الكورنثي، وبقايا بعض التماثيل المحطمة أو التي لم يكتمل بناؤها؛ عُثر على كتابات مقتبسة من تعاليم كهنة معبد دلفي في اليونان كتب فيها: «في الطفولة: الجاذبية، وفي الشباب: ضبط النفس، وفي منتصف العمر: العدالة، وفي الشيخوخة: الحكمة، وفي الموت: نهاية الألم.»

كما وجد الأثريون أيضًا دلائل واضحة تشير إلى أن هذه المدينة قد دمرتها النيران في القرن الثاني ق.م ويمكن أن نستنتج أن بعض بقايا الرماد تمثل مخطوطات سجل عليها تاريخ المدينة — إن لم يكن تاريخ المملكة الباكتريانية الإغريقية بأكملها — والتهمتها النيران بينما كانت المدينة تتهاوى. ومع ذلك، فإن اكتشاف مدينة في أفغانستان تماثل أثينا، يعتبر خطوة كبيرة تثبت أن أولئك الذين صاحبوا الإسكندر في غزواته ظلوا يونانيين حتى آخر لحظة. وفي عام ٢٠٠٠م طُمست معالم هذا الموقع الأثري تمامًا بواسطة جرافات حركة طالبان.

غير أن هناك آثارًا أخرى تركها الإغريق في هذه البلاد، فحتى يومنا هذا هناك جماعات قديمة، يتميز أفرادها بشعورهم الشقراء وعيونهم ذوات اللون الأزرق أو الأخضر، تعيش في وديان جبال شمال شرق أفغانستان النائية. وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت هذه الشعوب تعتنق ديانة تؤمن بتعدد الآلهة وهي ديانة لا تختلف كثيرًا عن المعتقدات الأسطورية اليونانية التي يمكن أن تكون قد تطورت خلال عزلتها عبر آلاف السنين. من المرجح بنسبة كبيرة أن هؤلاء الناس ينحدرون من نسل رجال الإسكندر، لكن لغتهم تنطوي

على مفردات تنتمي إلى أصول تسبق زمنيًّا اللغات الآريانية الهندية، مما يؤدي بالعلماء المعاصرين إلى الاعتقاد بأنهم قد يكونون من سكان البلاد الأصليين القدماء الذين عاشوا بعيدًا عن العالم، إلى الدرجة التي غفلوا فيها عن موجات الهجرة إلى أوروبا التي حدثت في عصور ما قبل التاريخ. لكننا إذا ربطنا حلًّا ما بلغز من ألغاز التاريخ فهذا لا يقودنا بالضرورة إلى الحقيقة، ولكن أحيانًا يقودنا حدسنا إلى مجموعة من العوامل التي قد تشكل حلًّا.

من المعلوم أنه في وقت ما زال حكم الإغريق لأفغانستان، وربما لم تكن القبائل البدوية فقط هي التي أزالت حكمهم، بل ربما ساهم المواطنون المحليون في ذلك من خلال ثوراتهم على الحكام. واضطر الإغريق حينها إلى الفرار نتيجة لذلك واللجوء إلى المناطق النائية في البلاد، خاصة إذا كان ساكنو وديان الجبال شعوبًا لا تختلف عنهم كثيرًا. ولكن ليس من السهل تصور أن يحاول هؤلاء الفارون المذعورون أن يزرعوا ثقافتهم الهيلينية في شعوب هذه المنطقة، بل الأصح أن يحاولوا هم أن يمتزجوا بمواطني هذه البلاد. ويمكننا أيضًا أن نتخيل آباء هؤلاء اللاجئين الفارين من المقاتلين الأفغان وهم يتركون صغارهم في هذه الوديان المخبأة بحثًا عن الأمان.

وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت هذه المناطق النائية تدعى «كافيريستان» بسبب ديانتها الملحدة. ولكن بعد أن تحولت شعوبها إلى الإسلام بالقوة، أصبحت المنطقة تعرف باسم نوريستان أو «أرض النور». وليس من المستبعد أن تكون سلالة المملكة الباكتريانية الإغريقية أو سلالة الإسكندر قد استوطنت هذه المناطق.

عبر قرن كامل من الزمان، سيطر السيثيانيون على معظم أراضي أفغانستان حاليًّا وأغلب أراضي باكستان. وفي القرن الخامس الميلادي — بعد أن أحبطوا كل طموحات الرومان في التوسع إلى ما بعد نهر الفرات، قام البارثيانيون بإرسال جيوشهم شرقًا لتأكيد سطوتهم على السيثيانيين. ولا داعي لأن نتصور معارك ضارية جرت بين هذين الشعبين قريبي الصلة بعضهما ببعض، أو أن نتخيل سلسلة من المعارك كالتي فرضت، كما هو واضح، على الإغريق. بل العكس هو الصحيح، إذ إن هؤلاء البارثيانيين، محدثي النعمة، قدموا إليهم بكل قوتهم، وتحت قيادة مليكهم المقاتل ميثريداتيس الثاني Mithridates II

ليبسط حكمه على أقاربه الأقل حظًّا. فترك النبلاء السيثيانيون في مواقعهم، بل إنهم احتفظوا باستقلاليتهم في المناطق الجنوبية الشرقية والتي لم يُعنَ البارثيانيون بالذهاب إليها. وبذلك اتجه البارثيانيون إلى جنوب الهندوكوش بدلًا من الشمال — الذي كانت دفاعاته قليلة — حيث بدأ الكوشان يمارسون ضغوطًا على الحدود البارثيانية.

كان لغزو السيثيانيين، بتعزيز من البارثيانيين، نتائج بعيدة المدى، فقد كانت قبائل السيثيان — منذ بداية كتابة هيرودوت لتاريخ العالم — تشكل التهديد الأقوى للبلاد المتحضرة التي تقع جنوبهم، لكنهم أخيرًا طردوا من المناطق البدوية الشاسعة بفعل قوة ضخمة اجتاحت سهول آسيا الوسطى. وفي القرن الثاني قبل الميلاد، اختفى السيثيانيون من ملعب الأحداث، والأرجح أن بقايا قبائلهم تتناثر حاليًّا وسط المجتمعات المقيمة في شرق أوروبا وأوكرانيا، أو ربما تكون قد تلاشت ضمن الاكتساح العظيم لقبائل البدو الرحل مثل قبائل الهون التي جاءت بعد ذلك. أما السيثيان الشرقيون فقد تلاشوا تمامًا بعد أن تدفقوا في مجموعات هائلة على أفغانستان والهند، لكن السيثيانيين أنفسهم لم يختفوا. ففي ذلك الوقت بدأت مجموعة عرقية جديدة تتشكل داخل أفغانستان جنوب الهندوكوش، وأيضًا في باكستان حاليًّا عبر سلسلة جبال سليمان أو الجبال البيضاء؛ تضم رجالًا شديدي النحول، ذوي عيون سوداء وذقون كثيفة الشعر، محاربين أشداء يسيطر عليهم حب الحرية الشخصية، ويتكلمون بلغة تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية القديمة، وإن كان قد تسلل إليها عبر القرون تأثير من بعض لغات الهند وبعض من لمحات الفارسية القديمة والآرامية واليونانية. وقد تشربت هذه المجموعة العرقية ثقافة الأهالي الوطنيين في نفس الوقت الذي غرست ثقافتها الخاصة في الثقافة المحلية بقدر أكبر، وهذه الشعوب تعرف حاليًّا باسم البشتون.

أسس ميثريداتيس عاصمته الشرقية في تاكسيلا بالقرب من نهر السند، لكن حكم البارثيانيين لهذه المنطقة كان قصيرًا، فعام ٣٠ ق.م بدأ الكوشان في التقدم نحو نهر الأوكسس، ومع تزايد أعدادهم هجموا على ممرات الهندكوش. وفي عام ٦٠ بعد الميلاد أمكنهم الاستحواذ على وادي كابول بأكمله. وحين أغارت قبائل الكوشان بكل قوتها حلت محل البارثيانيين والسيثيانيين، ودمرت

تاكسيلا عام ٧٥ ميلادية، وتقلص الحكم البارثياني في أفغانستان لينحصر في المناطق المزدهرة في الغرب. وامتصت القوة الجديدة الصاعدة القبائل والمحاربين الذين كانوا يعيشون في المنطقة.

وليس من المعروف على وجه الدقة الأصل العرقي للكوشان فيما عدا أنهم من القوقاز، ومن المحتمل أنهم كانوا يتحدثون اللغة الإيرانية. أما التأثير التركي على لغة البشتو (وهي لغة قبائل البشتون التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية) فهو لم يحدث إلا بعد ذلك بقرون. وبذلك — فيما عدا الغزو الإغريقي الذي قدم من أوروبا، والحكم القصير للإمبراطورية الهندية الموريانية — يمكن القول بأن أغلب الشعوب التي تدفقت، وهي الساكا والبارثيانيون والكوشانيون؛ يمكن أن يندرجوا تحت مسمى الشعب السيثياني: وهم الهنود الآريون القادمون من السهول والذين يتحدثون لغة ليست هي الإيرانية ولكن ذات علاقة وثيقة بها شكلًا وثقافة. أما الشعوب المقيمة حول الوديان الخصبة في أفغانستان فقد كانت تحاول أن تتفاعل مع هذه الحشود الجديدة في نفس الوقت الذي تحافظ فيه على نمط حياتها العادية. وبين الجبال، كان من الممكن أن يراقب البدو الرحل هذه التحركات دون أن يتعرضوا للغزو، وإن لم يكن لديهم مانع من المشاركة في أي تحالف يعود عليهم بالفائدة. ولم يكن لدى الكوشان لغة مكتوبة أو موروثات ثقافية جامدة يفرضونها على المنطقة، ومثل أسلافهم من البدو الرحل، كانوا متسامحين في مسألة العادات المحلية والدين.

أما بالنسبة لتأثيرهم الجيوبوليتيكي فقد كان هائلًا، فمدة قرنين من الزمان، كان البارثيانيون يقفون كسد منيع على الحد الشرقي للإمبراطورية الرومانية، عازلين بذلك ليس فقط مملكة الباكتريان الإغريقية ولكن الهند والصين أيضًا من الجنوب. ولكنهم حين بدءوا يفقدون قوتهم العسكرية تدريجيًّا، وحين بدأت إمبراطوريتهم تضمحل معنويًّا وتتمركز فقط في بلاد الرافدين، بدأت إمبراطورية الكوشان المتقدة الحيوية تتسع من بحر قزوين إلى بحر العرب لتصل إلى الهند، ومع ممارستها ضغوطًا إرهابية على الجناح الشرقي للبارثيانيين، فتحت طرقًا بحرية وبرية للتجارة إلى روما. وفي ذلك الوقت كان الطريق الحريري من الصين قد بدأ يتشكل مارًّا بالأراضي الكوشانية شمال الهندوكوش. ومن الممكن تصور القوافل التي كانت تتجه بعيدًا نحو الجنوب تحت حماية الكوشانيين في الوقت الذي كان فيه البارثيانيون عازفين

أو غير قادرين على التدخل حتى تصل البضائع إلى قبضة المقاطعات الشرقية الآمنة في أوروبا.

وفي حوالي عام ١٢٥م جلس كانيشكا Kanishka على عرش الكوشان وبدأ في تغيير الكثير في خريطة العالم. كان رجلًا عسكريًّا متميزًا فضم إلى مملكته أراضي من وادي نهر الجانج، ومن الأراضي البارثيانية في الغرب. وكانت العاصمة المركزية لإمبراطوريته تقع بالقرب من بيشاور على الجانب الباكستاني من ممر خيبر، أما عاصمته الصيفية فكانت في باجرام التي تأسست في موقع كابيش كانيش القديمة، والتي أصبحت فيما بعد إسكندرية القوقاز، في حين كانت العاصمة الشتوية مدينة ماثورا في الهند. وقد قام كانيشكا بتعزيز طريق التجارة البري الذي يربط بين روما والصين، والطريق البحري الذي يربطها بالهند من خلال الإسكندرية في مصر.

سار كانيشكا على درب أسوكا واعتنق البوذية، ولأنه كان رجلًا متنوع الثقافة ويمتلك موهبة فنية اكتسبها عندما كان يعيش في مدينة جاندهارا في وسط الإمبراطورية الكوشانية — فقد أصبح المسئول الأول عن نشر البوذية في الشرق. قبل كانيشكا كانت البوذية تتمثل في مجموعة من المفاهيم الفلسفية التأملية وبعض الرموز الدالة عليها (كان أحد هذه الرموز الصليب المعقوف). أما في عهده فقد اتخذ بوذا شكلًا آدميًّا بعد أن ساهمت الفنون الهندية والإغريقية والرومانية في تصويره. لا يزال المفهوم الأول للبوذية أو «المدرسة التقليدية» موجودًا في سري لانكا وبعض أجزاء جنوب شرق آسيا. أما «المدرسة الليبرالية» أو المهايانا كما اعتنقها كانيشكا فقد انتشرت في أفغانستان والهند واخترقت الصين لتمتد إلى اليابان.

لم تقف براعة الفنون في الإمبراطورية الكوشانية عند حد الصور المتعددة لبوذا، ففنون قندهار لا تزال حية حتى اليوم تعكس أسطورة رائعة لحضارة قوية قديمة، لكننا لسوء الحظ لا نعرف الكثير عن التاريخ السياسي والعسكري لهذه الإمبراطورية. يقول كارو في هذا الصدد: «إن عجزنا عن تتبع تاريخ الكوشان إنما هو راجع إلى أن جل تعاملاتهم وعلاقاتهم كانت مع أهل الهند، وهم أقل شعوب العالم القديم إدراكًا لأهمية التاريخ.» تشير الوثائق إلى ثلاثة ملوك خلفوا كانيشكا بعد وفاته عام ١٥٠م، لعل أشهرهم هو الملك الثالث فاسوديفا Vasudeva، وهو اسم ذو طابع هندوسي. وكعادة الأبناء في رفض

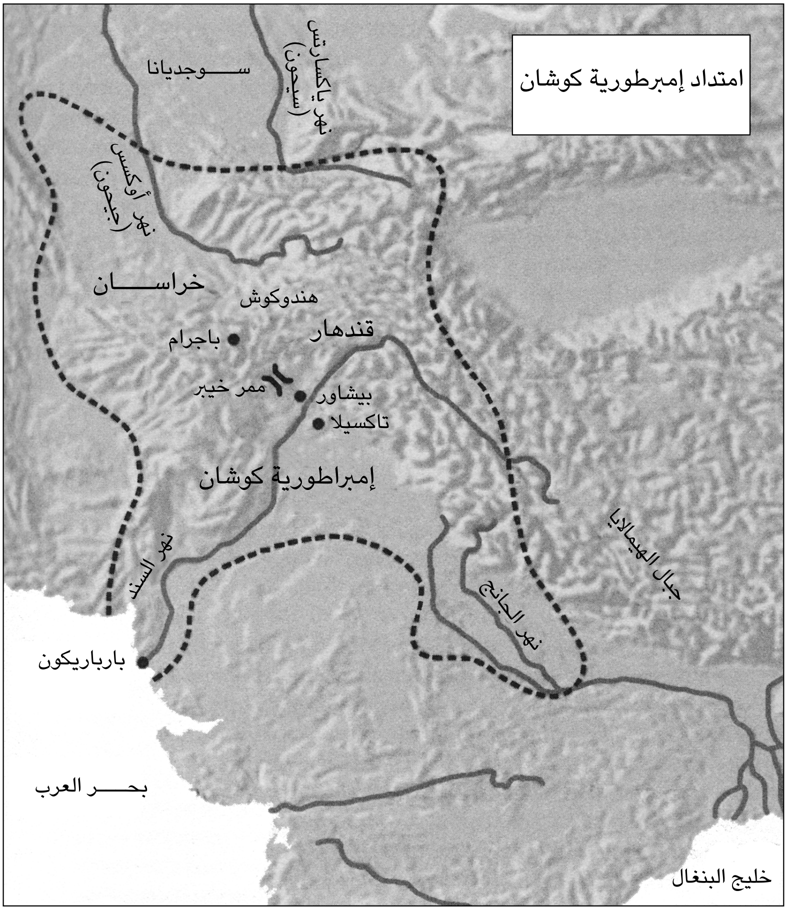

أساليب آبائهم، لم يقتنع خلفاء كانيشكا بفلسفة البوذية، فقد اتجه آخر ملوك الكوشان إلى البراهمة الهنود حيث وجد في ديانتهم قاعدة فلسفية عملية يمكن أن ترتكز عليها إمبراطوريته. لكن الوقت كان قد فات، فعام ٢٢٥م بدأ الكوشانيون في التفتت، وبدأ أولئك القوم الذين أطلق عليهم الصينيون في البداية «يو-تشي»، والذين — إن أردنا الدقة — أسميناهم السيثيانيين المحدثين، في الاختلاط والتزاوج مع السكان الذين كانوا فيما سبق محكوميهم.

لكننا لن نغالي في أسفنا لانتهاء عهد الكوشانيين، فنحن لا نعرف سوى القليل عن حكمهم لأفغانستان — ومن المحتمل أن يكون حكمًا جائرًا استبداديًّا، لكن ما لدينا من الدلائل يشير إلى ازدهار عظيم للفنون إبان

فترة تسيدهم، وانتشار لفلسفة مسالمة لا تدعم القوة العسكرية الغاشمة. بالإضافة إلى أن الكوشانيين فتحوا الأبواب أمام العالم المتسع من موقعهم الجغرافي ليتحولوا إلى قنوات حيوية تربط ما بين الشرق والغرب. وفي ذروة توهج هذه الإمبراطورية، كانت أفغانستان تطل على جميع الإمبراطوريات العظمى في العالم القديم — الفارسية، والهندية، والصينية، والرومانية الإغريقية. وكان يمكن للإمبراطورية الكوشانية أن تتبوأ مكانها وسط هذه الحضارات لكنها لم تستمر طويلًا.

إن ما تسبب في انهيار الدولة الكوشانية لم يكن له أي علاقة بالهند، فسلطتهم في الهند كانت أقوى من أن تهتز، وإنما كان الفرس في الغرب هم من تسببوا في ذلك بعد أن استعادوا قوتهم. كان البارثيانيون قد أسسوا دولة قوية استمرت أربعة قرون في المنطقة الوسطى للإمبراطورية الفارسية، لكن قوة الإمبراطورية بدأت تضمحل، وفي عام ٢٢٥م قام أحد الفرس ويدعى أرداشير Ardashir — وهو أحد أحفاد ساسان Sassan؛ بثورة وطنية، مدعيًّا أنه من سلالة الأكامنيد القدماء، ومعتنقًا ديانة النار الزارداشتية، وتمكن من الإطاحة بالملك البارثياني العجوز. بعد أن ثبت هذا الملك ملكه كان هدفه الأول هو إعادة غزو الشرق.

اجتاحت جيوش الساسانيين أفغانستان، واستمرت في تقدمها حتى وصلت إلى نهر السند الذي كان يمثل حد الإمبراطورية الفارسية. وكانت المناطق التي تقع شمال الهند وشمال الهندوكوش وحول وادي كابول ما زالت تحت حكم الكوشان المهلهل. قام الساسانيون بتعيين حكام لهذه الأراضي الجديدة من بين رجال الأقاليم الأشداء، فتجنبوا بذلك حدوث أية زعزعة مفاجئة في نمط الحياة المحلية. وكان التغير الأكبر الذي حدث في المنطقة — الذي من الممكن أن يكون قد لقي ترحيبًا لدى الأهالي الذين عاشوا لقرون طويلة حول نهر هلمند، ووادي هرات ومناطق أخرى — هو أن أفغانستان بعد قرون من الحكم اليوناني، والسيثياني والكوشاني قد عادت مرة ثانية إلى أحضان الفرس.

لكن أكبر موجة عنف تفجرت بعد قيام الإمبراطورية الساسانية كانت في الغرب وضد الرومان. وكان الرومانيون قد وعوا جيدًا الدرس، وتعلموا ألا يحاربوا في الأراضي الواسعة شرقًا ضد محاربي السهول مثل البارثيانيين،

ولذلك اكتفوا بمراقبة تدهور هذه الإمبراطورية بسعادة في ذات الوقت الذي كانوا يشاركون فيه مع الكوشان في علاقة تجارية ودية. وفي منتصف القرن الثالث، بدأت قوة الرومان تضعف قليلًا من جراء المشاكل الداخلية التي كانت تعانيها. ثم ظهر الساسانيون، وقد تشبعوا بإحساس قوي بأن القتال هو قدرهم، وبدءوا يهاجمون المقاطعات الرومانية في أرمينيا وسوريا. وردًّا على ذلك قام الإمبراطور فاليريان Valerian بالزحف شرقًا ليتقابل مع جيش الساسانيين عام ٢٦٠م في معركة إديسا جنوب تركيا الآن. وكان شابور Shapur — ابن أرداشير — قد نصب لهم كمينا بجيشه الذي كان يضم قوات ضخمة من المشاة وقوات أكبر من رماة الرماح الخيالة من محاربي السهول. وكان نتيجة هذا أن هُزم الرومانيون هزيمة نكراء، وتم أسر فاليريان — وكان أول إمبراطور يقع في الأسر — ثم مات بعد ذلك في أسره. ومرة أخرى انتهت إمكانية امتداد النفوذ الروماني إلى الشرق نهاية مأساوية.

العجيب أن اليونانيين نجحوا في الزحف بكل قوتهم عبر بلاد فارس إلى الهند، في حين أن خلفهم الرومان الأقوياء لم يتمكنوا من تحقيق ذلك. وإذا نظرنا إلى التاريخ من أبوابه الواسعة يمكننا القول إنه كان في إمكان الإسكندر أن يقوم بحملته الهيلينية الشاملة في ذلك الوقت، ففرق المشاة المدربة جيدًا، وأساليب المواجهة المباشرة التي كانت سائدة في العصور القديمة أثبتت نجاحها مع ملوك بابل وبرسيبوليس، لكن العصور اللاحقة كان التفوق العسكري فيها من نصيب محاربي آسيا الوسطي الذين تدفقوا من السهول بأعداد ضخمة بعد زحف الإسكندر. وكان في إمكانهم — ليس فقط هزيمة الشرق الأوسط بل اكتساح أوروبا أيضًا. ومن الطبيعي أن أفغانستان — بصفتها المحطة الأولى في آسيا الوسطى ومركز الثروات في حضارات العالم القديم — سوف يقدر لها أن تكون ساحة القتال لجميع هذه المعارك العنيفة.

وفي السهول العليا من آسيا الوسطى، استمر الصينيون في قتالهم المرير ضد محاربي قبائل البدو الرحل الذي استمر لقرون عديدة. وكان سور الصين العظيم — على الرغم من تكلفته الباهظة — الحل الأمثل لإبعاد البرابرة عن أراضي الشرق المتحضرة (مع أن أسرة هان نفسها كانت قد انتهت). كان أكبر تحالفات قبائل البدو هو تحالف زيونج-نو الذي يرجح أنه هو الذي طرد

الكوشان بعد حرب ضروس خاضها ضدهم، ثم لم تلبث قبائل هذا التحالف أن غادرت هي أيضًا منطقة السهول الشرقية. ورغم أن الباحثين عادة ما يرجعون أسباب الغزو أو الهجرة من آسيا الوسطى إلى صعوبة الحياة في السهول، فإنه من المحتمل أن المشكلة كانت تتمثل في رفاهية العيش، فالمناخ الجيد بالإضافة إلى عوامل إيجابية أخرى أدت إلى ازدياد في عدد السكان، أو بعبارة أخرى: انفجار سكاني. وعلاوة على هذا، اكتشف أولئك البدو كما اكتشف اليونانيون قبلهم والأوروبيون بعدهم، أن أكثر ما يكبدهم الخسائر هي تلك المعارك التي تنشب فيما بينهم، وأنهم حين يغادرون وطنهم الذي يرتبطون به لمواجهة شعوب أجنبية أخرى، كانوا يجدون أنفسهم متفوقين عسكريًّا.

في منتصف القرن الرابع الميلادي، عبرت حشود جديدة من محاربي الجبال نهر الأوكسس إلى أفغانستان. ومرة ثانية كان الصينيون هم أول من شهدهم، وطبقًا لما يقوله لويس دوبريه، أطلق الصينيون عليهم اسم يي-تي-أي-لي-دو Ye-ti-i-li-do وهو اسم أرهق المترجمين البيزنطيين وانتهى بهم الأمر إلى تسميتهم «الإفثالايت أو الهفثالايت». أما الفرس فأطلقوا عليهم اسم «الهياطلة أو الأياطلة» (وهو مصطلح قد يشير إلى الملك أتيلا Attila)، ولكن الاسم الذي اشتهروا به بعد أن غزوا أفغانستان هو «قبائل الهون البيضاء».

في هذه الآونة لم تعد أفغانستان مجرد معقل حروب بين شعوب إيرانية تربطها معًا قرابة ما، أو جيوش زاحفة من حضارات إغريقية أو هندية متقدمة. فمع هذا الانفجار الجديد الآتي من عمق آسيا الوسطى، تصاعد مستوى العنف بشكل كبير. فقد كان الغزاة الجدد محاربين أشداء أتوا من أراض شمالية جرداء ذات طقس شديد البرودة، وقد صقلت مهاراتهم الحربية من خلال المعارك القبلية التي نشبت فيما بينهم. والأغلب أن قليلًا منهم فقط شاهدوا مدنًا أو عرفوا معنى الحياة الحضرية قبل أن يغادروا السهول الجرداء، ولا بد أن غريزتهم كانت تدفعهم إلى تدمير أي مجتمعات مستقرة فور رؤيتها. ولذلك كان غزو هؤلاء الهياطلة أو «الهون البيض» لأفغانستان أمرًا مروعًا.

وإذا كان أصل الكوشان على قدر من الغموض، فإن أصل قبائل الهون البيضاء يمثل لغزًا محيرًا، ويشك العلماء المحدثون — استنادًا إلى ما ذكره

الصينيون — في أنها كانت قبيلة من قبائل المغول تعيش في حماية شعوب الآفار التي سوف تدخل بعد ذلك في التحالف الذي سوف يتبع أتيلا في أوروبا. (وفي بيزنطة يعتقد البعض أن الآفار لم يكونوا إلا موجة أخرى من موجات غزو قبائل الهون). كان جيش أتيلا يتكلم اللغة التركية وإن كان من المحتمل أنه كان يضم جماعات أخرى. ويأتي تفرد الهياطلة من خلال ما ذكره المؤرخ الروماني بروكوبياس Procopius الذي كتب في منتصف القرن السادس يقول: «إنهم من قبائل الهون اسمًا وانتماء. ولكنهم لم يختلطوا بقبائل الهون الأخرى التي نعرفها، فهم يتميزون بأجسامهم البيضاء وملامحهم غير القبيحة.»

وبطبيعة الحال فإن الاحتمال قائم في كونهم الجماعة الأخيرة من السيثيانيين — الذين حين بدءوا يحسون وهم في السهول أنهم مثل السمك حين يخرج من الماء؛ تبعوا أقاربهم من الكوشان الذين نجحوا في عبورهم نهر الأوكسس. لكن بعض الباحثين المعاصرين يصف هؤلاء الهياطلة بأنهم كانوا يتميزون «بالقبح وقصر القامة»، وهي الصورة التي تصف بها الشعوب المتحضرة المعتدين من المغول الأتراك الذين هاجموهم. ورغم أن «الهون البيض» أدخلوا بعض المصطلحات الجديدة في اللغة الأفغانية مثل «خان» و«أولو»، فإن انتصاراتهم لم تتمخض عن تأثير تركي عميق في الثقافة الأفغانية، رغم أنه كان معروفا في مناطق السهول أن ثقافة القبائل الكبيرة تبتلع ثقافة القبائل الصغيرة في طريقها، وأن أسلوب الحياة الوافدة يتخطى كل الفروق العرقية واللغوية. وفي ضوء كل هذه التقديرات يمكن اعتبار «الهون البيض» هجين من شعوب وسط آسيا مع عناصر كبيرة متداخلة من الهنود الآريانيين، لكنهم في نفس الوقت يختلفون تمامًا عن سابقيهم الذين أتوا من نفس المنطقة قبل ذلك في أنهم أكثر شراسة وعنفًا.

أما ما ذكر عن «قبح» هؤلاء الغزاة الهون، فلا يجب أن يؤخذ على أنه ذم لهم، فذاك المظهر المتفرد كان الهون يتعمدون الظهور به، فقد كانوا يربطون رءوس أطفالهم بحيث تتشكل جماجمهم عند البلوغ على هذه الصورة المتنافرة الغريبة، التي تظهر في بعض المسكوكات التي تعود إلى فترة الهياطلة. ويقول المؤرخ اليوناني أميانوس مارسيلينوس Amianus Marcellinus في هذا الصدد: «يقوم هؤلاء الهون بإحداث جروح بالغة في خدود أطفالهم فور ولادتهم، بحيث لا ينمو الشعر بعد ذلك في أجزاء معينة من وجوههم وتحل محله ندوب

مجعدة قبيحة.» لقد كانوا يهدفون من هذا إلى إثارة الخوف والفزع في نفوس الأعداء بأكبر قدر ممكن.

حين تعرف الغربيون على هذه القبائل لأول مرة، لم يستطيعوا أن يحددوا إذا ما كان هؤلاء الغزاة بشرًا أم لا. فمنذ العصور القديمة تعرف الآريون الهنود على الإثيوبيين، والصينيين واستنتجوا حينها أن أنواع الكائنات تتباين، ثم جاء اكتشاف الأقزام في إفريقيا بواسطة أحد المكتشفين الأكاميندين ليحدث صدمة كبرى، لأولئك الذي صدقوه، ناهيك عن القصص التي كانت تروى عن محاربات الأمازون. وبالقطع كانت دهشة العالم الغربي والفرس سوف تكون أقل لو كان هؤلاء المغيرون ذوي ذيول أو قرون، أو يأكلون أطفالهم، أو يمشون على أربع حين لا يمتطون الخيول. ولقد رجحت قوتهم الحربية الخارقة وعدم القدرة على التصدى لهم في المعارك الرأي القائل بأنهم ليسوا من بني البشر.

ومع غزو «الهون البيض»، دفعت أفغانستان ثمنًا باهظًا لموقعها الجغرافي قياسًا بالفائدة التي جنتها من حكم الكوشان. فهذه الأرض لم تكن فقط أرضًا محورية بين الحضارات الكبرى في الشرق والغرب والجنوب، ولكنها كانت أيضًا الممر الأول الذي يخترق جبال الهيمالايا بالنسبة لمحاربي السهول من البرابرة الذين يغيرون من الشمال.

تلاحقت الأحداث بعد ذلك تباعًا. فحين عبر الهون نهر الأوكسس، حلوا محل مملكة الكوشانيين التي كانت قد نجحت في تجنب سيطرة الساسانيين، وتقهقر هؤلاء الكوشانيون — بقيادة ملكهم كيندارا Kindara — إلى وادي كابول عبر الممرات الجبلية بعد انتصارهم عليها، ثم مدوا سيطرتهم على قندهار. وهذه الغزوة الأولى جنوب الهندوكوش، التي يطلق عليها أحيانًا كيندارايتس؛ تعتبر أول مد للغزو الهوني.

أما الهون البيض أنفسهم فقد استولوا على باكتريا ثم قضوا على الفرس. وفي عام ٤٢٧م نصب أحد الملوك الساسانيين، ويدعى باهروم جور Bahrum Gur، كمينًا لقوة مهاجمة من البدو وقضى عليها بأكملها، مما أنقذ الإمبراطورية الساسانية لبعض الوقت. لكن الهون تزايد عددهم وبدءوا في اجتياح الجنوب والغرب، وحين حل عام ٤٥٥م كانوا قد استولوا على وادي كابول وجاندهارا. وفي عام ٤٨٤م استعان بهم أحد الأمراء الساسانيين في تصرف بعيد عن الحكمة ليدعموه في إحدى معاركه الداخلية حول وراثة العرش فقتلوا الملك

الفارسي بيروز Peroz، واستولوا على هرات وميرف، وفي العقد التالي اجتاحوا خراسان وبعض الأراضي الساسانية الأخرى جنوب بحر قزوين. وكان من الممكن أن يقضوا تمامًا على الساسانيين لولا أن غنيمة أخرى كانت تلوح أمامهم في الشرق، فاتجهت جحافلهم إلى الهند.

في القرن الخامس الميلادي كانت إمبراطورية جوبتا قد ظهرت في الهند كمنافس قوي للساسانيين للاستيلاء على أفغانستان، لكن بعد وفاة ملكهم القوي سكانداجوبتا Skandagupta، هاجم الهون بكل شراسة، وكان واضحًا أن محاربيهم ممتلئون حماسة لاجتياز جبال الهندكوش الصعبة وسلسلة جبال سليمان ليتدفقوا على سهول البنجاب المنبسطة. وبعد أن وصلوا إلى نهر الجانج تقدموا إلى الوادي، وفي طريقهم قاموا بذبح البوذيين وتدمير معابدهم.

لا توجد أي سجلات تصف المعارك التي خاضها «الهون البيض» قبل وصولهم إلى الهند. ولكن يمكننا فقط تصور القتال الذي دار بين الرجال السيثيانيين أو الكوشانيين الأقوياء في أفغانستان — وهم من القادمين الجدد من السهول — وبين الهون البيض. ربما أدرك الغزاة الجدد عدم جدوى القتال في الأراضي الجبلية حيث يكونون في الموقف الأضعف. وربما كانت القبائل في الجبال تكتفي بمشاهدة الجموع المغيرة وهي تمر عبر نهر السند. وحين حان الوقت الذي طُرد الحكام الساسانيين، تمكن الغزاة والمدافعون من البدو الرحل من الوصول إلى اتفاق يشمل مبدأ «عش ودع الآخرين يعيشون أيضًا». أما الثمن الأكبر، فقد دفعه الأهالي المدنيون الذين وقعوا بسهولة فريسة لجيوش البرابرة. وهنا يمكننا أن نشعر بالخوف على مصير الآرياسبيانيين (أو المحسنين) الذين سبق لهم مد يد العون لقورش وللإسكندر حين وصلا إلى وادي نهر هلمند. ولأن الهون لم يألفوا مفهوم الجماعات المدنية، فقد كان من المنطقي بالنسبة لهم أن يعتبروا تجمعات الأهالي هذه عقبة تصدهم عن المضي قدمًا في طريقهم، وأن يعتبروا مقاومة هؤلاء الأهالي الضعيفة — والتي كانت حدثًا غير معتاد في هذه المنطقة — دافعًا لهم لتأكيد قوتهم العسكرية، وزيادة فرصتهم لسفك الدماء.

ومع مرور الوقت بدأ الهياطلة في الإعجاب بهذه الأرض الجديدة بدلًا من محاولة تدميرها. وبدءوا يتكيفون مع بيئتها الجميلة ويندمجون فيها، فصكوا العملات، وأحيانًا كانوا ينقشونها في محاولة أولية لتقليد اليونانيين،

وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أي تأثير ثقافي على الأرض الجديدة. بل الواقع أن ملوكهم — الذين تمركزوا فيما يعرف الآن بأفغانستان الشمالية — لم يهجروا قط أسلوب الحياة الذي تميز به سكان السهول المفتوحة. ذكر اثنان من الرحالة البوذيين هما: سونج يون Sung Yun، وهوي شنج Hui Sheng هؤلاء القوم فيما كتباه عام ٥٢٠م قائلين: «إن الهياطلة لا مدن لهم، ولكنهم يتجولون بحرية ويعيشون داخل خيام، ولا يقطنون أي مدينة، بل إن العرش الذي يحكمهم ما هو إلا خيمة متحركة. وهم يتنقلون بحثًا عن الماء والمرعى، وفي الصيف يتجهون إلى الأماكن الباردة، في حين يبحثون في الشتاء عن المناطق الدافئة. وهم لا يؤمنون بقوانين البوذية بل إنهم يعبدون عددًا كبيرًا من الآلهة.»

ورغم أنهم في البداية قاموا بتدمير معابد البوذيين — التي ربما ظنوا خطأً أنها حصون أو أنها قلاع تمثل تهديدًا لهم — فقد تبين بعد ذلك أنهم يتسامحون مع الديانات الأخرى كما تفعل معظم الشعوب الوثنية التي تعيش في السهول عندما تلتقي بشعوب أخرى متحضرة للمرة الأولى. ففي وسط أفغانستان، وفي وادي خصيب يقع بين جبال الهندوكوش، عاشت جماعة بوذية بسلام وأمان في مدينة باميان. وفي القرن الثالث الميلادي قام البوذيون بنحت تمثال ضخم لبوذا في جانب أحد الجبال. وفي القرن الخامس نحتوا تمثالًا آخر يبلغ طوله مائة وخمسين قدمًا. أما المنحدرات الصخرية الشاقة فكانت مكتظة بالكهوف حيث كان يعيش ويتعبد فيها حوالي ثمانية آلاف من الرهبان البوذيين.

وفي بلاد الفرس، كان الساسانيون يتراجعون أمام الهون البيض هاربين بالكاد من مذابحهم بعد أن قرر أعداؤهم التوغل شرقًا خلال أفغانستان والهند. لكن بحلول منتصف القرن السادس، كان الساسانيون قد نجحوا في تجميع قواهم، بل واستعادوا ثقتهم بأنفسهم بعد سلسلة من الحروب خاضوها ضد البيزنطيين على الحدود. وكان الفرس خلال هذه الفترة يتحينون الفرصة للعودة إلى أفغانستان، بيد أنهم كانوا يترددون في بدء هجوم مضاد. لكن في النهاية نجحوا في استقطاب بعض الحلفاء. ففي شمال الأوكسس وصلت حشود جديدة من البدو الرحل القادمين من سهول آسيا الوسطى — وهؤلاء كانوا بلا شك يتحدثون اللغة التركية. تزوج الملك الساساني كسرى Chosroes من ابنة الملك التركي سينجيبو Sinjibo، ثم قام الاثنان بهجوم مشترك على الهون

البيض. وكما حدث من قبل وسوف يتكرر بعد ذلك في تاريخ أفغانستان، شهدت هذه الحرب تحولًا كاملًا في ولاء المقاتلين من جانب إلى آخر، بعد أن انضم محاربو الجبال إلى الغزاة بدلًا من محاربتهم. ويسجل التاريخ أن الهون البيض هزموا هزيمة نكراء من جراء هجمتين نزلتا عليهما من شمال وجنوب الهندوكوش، وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد أنه كان هناك طابور خامس داخل جيشهم.

وكما حدث مع من جاءوا قبلهم من السيثيانيين، فقد اختفى ملوك الهون البيض، بينما ظلت بقايا من شعوبهم تعيش على أرض أفغانستان. لم يسبق في تاريخ أفغانستان أن استطاع جيش غاز أن يخضعها معتمدًا فقط على قوته العسكرية، فلم يكن هناك سبيل إلى هذه الغاية إلا بتجنيد بعض أمراء الحرب أو الزعماء المحليين لتنفيذ مخطط المحتل. وكما سبق أن رأينا فإن بعض القبائل في أفغانستان لم تقع أبدًا في قبضة الغزاة، وإن كانت قد تظهر ولاء لسلطة معينة ولكنها في مقابل هذا الولاء تنال قدرًا كبيرًا من الحرية. ومع هلاك قبائل الهون البيض، يمكننا أن نتخيل حدوث ذلك السيناريو الذي يتكرر كل مرة: رجال أقوياء يسيطرون على مجموعة من المحاربين الأشداء يقدمون الولاء إلى قوة جديدة تُغير عليهم لتطرد القوة القديمة، وفي المقابل يتركون لحال سبيلهم.

وفي أفغانستان حاليًّا، من العسير تحديد الآثار التي تركها الهون البيض، أما عمن ينحدرون من نسلهم فهم يتركزون بشكل كبير في البنجاب وراج بوتانا، وكذلك في شرق الهند الحالية. حيث ما زال الجوجار — وهم عبيد كان الهياطلة قد اصطحبوهم معهم من السهول — يقومون بفلاحة الأرض. وتعني كلمة راج بوت «ابن الملك» مما يدل على أن فترة حكم الهياطلة لا تزال راسخة في ثقافة هؤلاء المحاربين القدامى التي تعود إلى ١٥٠٠ عام. ربما كان سيسهل تحديد من ينحدرون من نسل الهون البيض في أفغانستان لولا أن أصول بعض قبائل الجبال لا تزال غامضة. لكن الأرجح هو أن القبائل السيثيانية والبارثيانية والكوشانية — التي لم تكن غريبة عن فنون الحرب — قد حاربتهم وطاردتهم حتى الأراضي السهلة في شبه القارة.

ومع إطلالة القرن السابع، كان الساسانيون الفرس قد بسطوا سيطرتهم مرة أخرى على أفغانستان، وقامت مملكة جوبتا في الهند بتعزيز دفاعاتها على

طول حدودها مع الفرس عند نهر السند. وإذا ما حاولنا استقراء الأحداث فسندرك أن الساسانيين، في محاولتهم لاستئصال شأفة الهون البيض عن طريق منح قبائل البدو الأتراك مزيدًا من الدعم — قد خلقوا قوة لن يستطيعوا السيطرة عليها بعد ذلك. لكن المشكلة الثانية التي واجهت الساسانيين لم تكن مدًّا آخر من رماة الرماح الخيالة القادمين من الشمال، وإنما جيوش أخرى تدفقت من الجنوب بهدف معين. جاءت هذه الجيوش الجديدة التي اجتاحت بعد ذلك أفغانستان وبلاد فارس من شبه الجزيرة العربية، وكانت — إلى جانب تسليحها العسكري — مسلحة بمبادئ عقائدية. ومن الواضح للجميع أنه حتى يومنا هذا لم يستطع أحد أن يوقف تقدمها.

في عام ٦٣٢ توفي الرسول محمد في بيت المقدس تاركًا وراءه جيشًا من المسلمين المتحمسين لنشر رسالته. أدرك الفرس أن هجوم المسلمين عليهم سوف يكون وشيكًا، ولذلك ففي ربيع عام ٦٣٧ جهزوا جيشًا ضخمًا مكونًا من ١٠٠٠٠٠ مقاتل ومعهم أفيالهم، فعبروا نهر الفرات كي يَسْتَبِقوا هجوم المسلمين. وفي قرية القادسية (في العراق حاليًّا) تقابلوا مع قوات عربية خفيفة قوامها ثلاثون ألف محارب. وبدأ العرب بالهجوم محاولين اختراق خطوط الفرس بهجمات من فرسانهم، لكن الساسانيين قاموا بهجوم مضاد بأفيالهم أثار ذعر خيول العرب، الذين عانوا كثيرًا حتى استعادوا تماسكهم. وفي اليوم التالي، كان العرب أكثر حذرًا، فنجحوا في شن هجمات سريعة أسفرت عن وقوع العديد من القتلى في كلا جناحي الجيش الفارسي، وفي اليوم الثالث تلقى العرب تعزيزات من الجيش السوري صاحب الخبرة الكبيرة في قتال الأفيال. وفي تلك المعركة أصيبت الأفيال جراء قذائف نارية أطلقت عليها فتفرقت وتراجعت مذعورة إلى صفوف الساسانيين تطؤهم بأقدامها، فاندفع الفرسان العرب مخترقين جيش الأعداء الذي تشتتت جبهته، وطوال الليل أخذ العرب يطاردون الجيش المنسحق مرتكبين كثيرًا من المذابح. أما رستم Rustam، قائد الساسانيين والوصي على الإمبراطور يزدجرد الثالث Yazdegred III، فقد أسر وهو يحاول عبور إحدى القنوات ليصل إلى مكان آمن، ثم قطعت رأسه.

وفي أواخر نفس العام، هزم العرب جيشًا آخر من جيوش الساسانيين في معركة جالولاء، وفي عام ٦٤٢، حاربوا يزدجرد في نهاوند جنوب همدان بعد

أن جمع كل ما تبقى من جيش إمبراطوريته الذي كان يفوق جيش العرب عددًا وعدة، ولكنه لم يستطع الصمود أمام هجومهم الكاسح. وحين دُمِّر جيشه فرَّ يزدجرد إلى الجبال حيث لقي مصرعه، ولجأ ابنه بيروز — وهو آخر حكام الساسانيين — إلى الصين طلبًا للحماية.

في أواخر القرن السابع الميلادي، توغل العرب في أفغانستان، فتقدمت فرقة من سيستان واستولت على قندهار، في حين استولت فرقة أخرى على هرات وبلخ، التي أطلق عليها العرب «أم المدائن». وهي المدينة التي شهدت مولد زرادشت Zoroaster، وكانت تضم مائة معبد بوذي. ثم تقدمت قوة من قندهار نحو كابول التي كانت تحت حكم الهندوشاهيس، وهم سلالة حاكمة من الهنود، ولكن بدلًا من احتلال المدينة قام العرب بتعيين حاكم عسكري عليها وجاب للجزية.

لم تعتنق أفغانستان في مجملها الإسلام على الفور، والواقع أن الغزاة العرب اضطروا لحصر نشاطهم في المدن الرئيسية مع محاولة التقرب من البلاد المجاورة، واستمرت القبائل الجبلية في اعتناق عقائد الزاردشتية، أو البوذية، والديانات الوثنية لعقود طويلة، ثم تحولت إلى الإسلام تدريجيًّا، سواء من خلال إرادتهم الحرة أو بالقوة. وكان من بين العوامل التي هيأت لهم الطريق أنه تحت حكم الخلفاء العباسيين في بغداد في القرن الثامن (الذين جاءوا بعد محمد)، تمتعت المنطقة بفترة سلام ونهضة علمية. وعلى الجانب الثقافي أفرز التزاوج الذي حدث بين الحضارة الإسلامية والفنون الفارسية أعمالًا ضاهت في روعتها الأعمال التي نتجت عن تزاوج الفن الإغريقي مع البوذية في جاندهارا. وانتشرت المساجد والقصور الفخمة في مدن هرات، وبلخ، وبخارى، وسمرقند، وبلغت فنون الشعر، وصناعة الفخار ونحت البرونز درجة عالية من التميز والإتقان.

بدأت الدولة العباسية تضعف في منتصف القرن التاسع الميلادي، وتزامن ذلك مع ظهور جماعات أخرى من بدو السهول المتحدثين باللغة التركية. وقد أسست إحدى هذه السلالات الحاكمة التركية إمبراطورية في بلاد ما وراء النهر هي الإمبراطورية السامانية، واختارت بخارى عاصمة لها، ثم قامت بسلسلة من الغارات على نطاق واسع يمتد من الهند حتى يكاد يصل إلى بغداد. وفي وادي كابول تراخت قبضة العرب ليحل محلها حكم السامانيين الذي اتسم

بالفوضى، مما سمح لهندوس البنجاب بالتوسع في الاستيلاء على الأراضي، لكنه في القرن التالي طُردوا بحملة انتقامية.

في عام ٩٧٧م حاول أحد العبيد الأتراك ويدعى آلتيجين Alptigin توجيه ضربة ضد أسياده من السامانيين في بيشاور (كان العبيد في الإسلام يستخدمون كمحاربين، وفي عصور لاحقة وصلت طوائف منهم إلى السلطة كما حدث مع المماليك والانكشاريين). وحين فشل آلتيجين في محاولته، فر هاربا مع أتباعه إلى جنوب الهندوكوش وأقام مركزًا لعملياته العسكرية في غزنة. كان الأتراك الغزنويون قد تحولوا إلى مناصرة الإسلام بقوة، وسرعان ما بسطوا سلطانهم ونشروا دينهم عبر أفغانستان. أما عن السامانيون — الذين تعرضوا لهجمات جحافل جديدة من البدو هجمت عليهم من الشمال، فكانوا أيضًا موضع هجوم من الغزنويين من الجنوب. وقد تمكن آلتيجين وخلفاؤه من بعده من مد نفوذهم حتى نهر الأوكسس، ثم إلى خراسان وحتى بحر قزوين.

تولى الملك محمود، ثالث ملوك الغزنويين، العرش عام ٩٨٨م، وأصبح أقوى ملوك الغزنويين قاطبة، فبعد اتجاهه شمالًا ليسحق البدو المحتشدين على حدود مملكته، اتجه إلى حيث توجد حضارة الهند القديمة مغيرًا على كل ما في طريقه، وكما قال و. ك. فريزر تيتلر W. K. Fraser-Tyttler «لقد امتزج بداخله حماسه الديني الذي يحثه على تحطيم الأصنام مع غريزة زعماء أهل الجبال المحبين للسلب والنهب.» وقد بلغ عدد غزواته سبعة عشر في مجموعها، قام خلالها بنهب العديد من المدن والمعابد الهندية، وفي كل مرة كان ينهب من الثروات ما يستطيع حمله إلى غزنة. وفي عمق توغله في الهند وصل إلى كاثياوار واستولى على بوابات سومنات وعلى تمثال الإله من معبده المقدس.

وفي ذلك الوقت كانت غزنة مدينة رائعة، تحفل بالغنائم التي سُلبت من الهند وتزخر بالفن الإسلامي والثقافة الإسلامية. وبدعوة من محمود حضر الشاعر الفارسي الفردوسي والمؤرخ البيروني ومكثا زمنًا في بلاطه. وقد اكتشف علماء الآثار المحدثون أن درجات سلالم أكبر مساجد غزنة بنيت من الأوثان الهندية، وقد بليت جوانبها الرخامية من أثر أقدام المسلمين. وبالإضافة إلى المساجد والقصور الفخمة قام محمود بتشييد مئذنتين ضخمتين أسماهما «برجي النصر».

ومع أن الإمبراطورية الغزنوية لا يمكن اعتبارها إمبرطورية أفغانية وطنية — حيث إن الدور الذي لعبه الأهالي من غير الأتراك في هذه الحضارة غير واضح — لكنها لعبت دورًا رئيسيًّا في توحيد بلاد الهندوكوش من خلال الإسلام. وكان الهندوس قد طردوا من البلاد إلى غير عودة، وملالي محمود قد نجحوا في هداية معظم سكان بلاد البنجاب إلى الإسلام ممهدين الطريق بعد ذلك إما لتوثيق علاقتهم بها أو لمهاجمتها وسلبها في المستقبل. وبعد وفاة محمود عام ١٠٣٠م بدأت الإمبراطورية في الترنح، في حين كان البدو الأتراك القادمون من السهول يزدادون قوة، أما خليفته مسعود فقد سيطرت عليه اهتماماته بالهند.

وجاءت الضربة القاضية للإمبراطورية من قوة غامضة أخرى داخل أفغانستان وهي طائفة الغور، فمن الوديان النائية في وسط الهندوكوش ظهرت هذه الجماعة الجديدة. قد يكون هؤلاء الغور من الكوشان أو من مناطق أخرى عاش فيها الهياطلة، لكن المؤكد أن محمود كان قد حاول غزوهم مرة، وحين بدأت قوتهم تزداد كان ذلك إبان فترة حكم الأتراك. ولأغراض توسعية خرجت هذه الطائفة من الجبال لتؤسس إمبراطوريتها في هرات.

في عام ١١٤٠م هاجم علاء الدين ملك الغور غزنة وأحرقها. وبعد ذلك استولى الغور على أراض تبلغ ضعف الأراضي التي استولى عليها الغزنويون شرقًا وغربًا. وفي عام ١١٨٦م طاردوا آخر ملوك الغزنويين، وكان يقيم في لاهور فقتلوه. لكن إمبراطورية الغور لم تتمكن من الصمود أمام قوة الأتراك المتصاعدة في بلاد ما وراء النهر. وحوالي عام ١٢٠٥م هزم الغور، وفي العقد الذي تلاه كانوا قد اندمجوا في الإمبراطورية الخوارزمية الجديدة. أما الدلائل التي تشير إلى وجود الغور الذين ظهروا ثم اختفوا بسرعة فهي ضئيلة إلى حد كبير، ويعود الفضل في العثور على ما يشير إلى هذه الإمبراطورية إلى اختراع الطائرة، فعام ١٩٤٣م كان أحد الطيارين يقود طائرته فوق جبال الهندوكوش حين لمح مبنى غريب يرتفع وسط وادي جبلي مهجور بالقرب من جام، ولم يكن هذا المبنى إلا مئذنة يبلغ إرتفاعها ١٨٠ قدمًا، ولأنها بنيت في منطقة مهجورة فقد ظلت مجهولة، دون أن يقترب منها أحد عبر مئات السنين التي حفلت بالحروب المدمرة في أفغانستان. وقد أكد علماء الآثار أن هذا البناء هو برج النصر الذي بناه الغور.

كانت أمواج البدو التي تدفقت عبر السنين على نهر ياكسارتس من قبائل الأوجوز التركية التي انقسمت إلى جماعتين رئيسيتين: السلاجقة نسبة إلى أحد قوادهم، والثانية عرفت باسم التركمان. وقد تقدمت قوات السلاجقة حتى البحر المتوسط حيث شكلت بعد ذلك القوة المقاومة للفرسان الصليبيين القادمين من أوروبا، ثم أسسوا الإمبراطورية العثمانية في تركيا. أما بقية القادمين الأتراك فقد كانوا عماد الدولة الخوارزمية التي أصبحت بعد ذلك ولفترة وجيزة أقوى دولة إسلامية في العالم.

في هذه الآونة لم يكن الخليفة العباسي في بغداد يتمتع بأي سلطة فعلية على البلاد الإسلامية، حيث انتزع السلاجقة القوة العسكرية من قبضته، كما نافسوه أيضًا من خلال النهضة الثقافية والعلمية التي كانت سائدة في بلاد ما وراء النهر. وفي الوقت الذي لم يتبق له سوى السلطة المعنوية، بدأ السلاجقة أيضًا في التشتت وتوسعت خوارزم وامتلكت جيشًا كبيرًا وأراض واسعة. وفي عام ١٢١٩م بسطت الجيوش الخوارزمية سلطانها كاملًا على أفغانستان وعين جلال الدين، ابن الشاه محمد الثاني حاكمًا. ومن عاصمته في سمرقند تمكن الشاه الخوارزمي من إقامة جسر تجاري بين الصين وبلاد فارس والهند مما زاد ثروة بلاده وأعطاه القدرة على توسيع رقعة أراضيه.

تركزت المشكلات الرئيسية في: أولًا أن الغالبية العظمى من السكان الفرس (أو من اكتسبوا الهوية الفارسية) كانوا يعانون تحت حكم الطبقة العسكرية التي تهيمن على الجيش، فقد كان جيش الإمبراطورية يتعامل معهم كقوة محتلة أكثر من كونها المسئولة عن الدفاع عن الدولة، وهو وضع ساهمت والدة الملك محمود الثاني في تفاقمه، فقد كانت تتمسك بأجدادها الأتراك حتى كادت تقيم حكومة موازية لحكومة الشاه. بالإضافة إلى أن الخوارزميين كانوا في نزاع مع الخلافة التي أثارت قوةُ وطموح محمد الثاني مخاوفَها. وسوف يكون لهذه الانقسامات السياسية داخل الدولة الإسلامية نتائج عنيفة بسبب المشكلة الثالثة التي سوف تواجه الدولة الخوارزمية، فقد كانت جماعة جديدة من محاربي السهول على وشك أن تطل عليهم من الشرق، لكنها أخطر هذه الجماعات على الإطلاق.

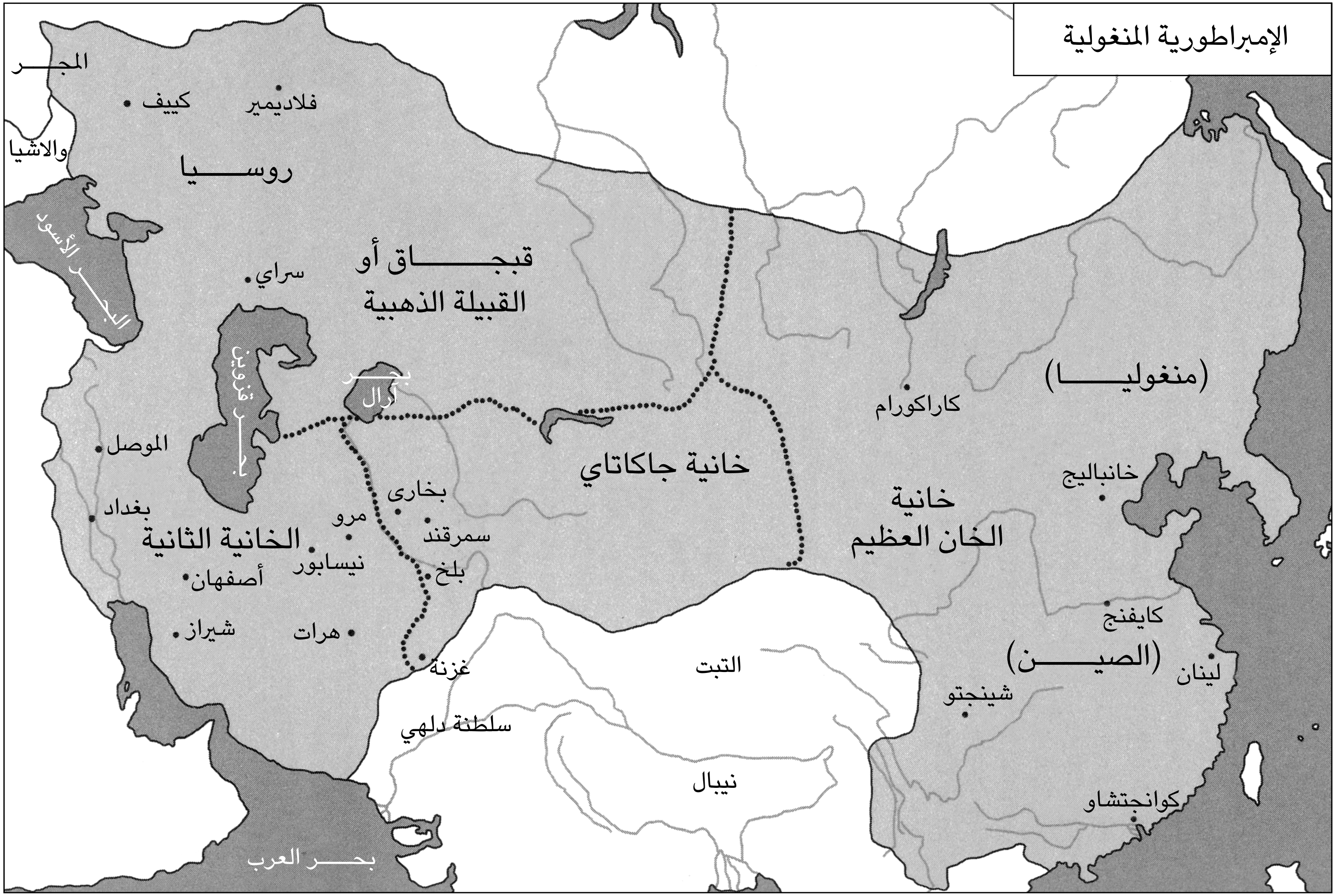
الإمبراطورية المنغولية
المجـــر
والاشيا
كييف
فلاديمير
روســـــيا
البحـــر الأسود
سراي
قبجــــــاق أو
القبيلة الذهبية
بحــــر قزوين
بحـــر
آرال
الموصل
بغداد
الخانية الثانية
أصفهان
شيراز
هرات
نيسابور
مرو
بخارى
سمرقند
بلخ
غزنة
سلطنة دلهي
بحـــر العرب
خانية جاكاتاي
التبت
نيبال
كاراكورام
(منغوليـــــا)
خانية
الخان العظيم
خانباليج
كايفنج
(الصيــــــن)
لينان
شينجتو
كوانجتشاو